فنون النثر
في العصر العباسي

دكتور / أحمد أمين مصطفى
استاذ الدراسات الأدبية
بكلية الألسن

١٩٩٥م - ١٩٩٦م

الناشر
المكتبة الأزهرية للتراث
٩ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر الشريف ت: ٥١٢٠٨٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كان العصر العباسى عصر نهضة أدبية شاملة ، فقد نهض النثر بجميع فنونه كما نهض الشعر بجميع أغراضه ، وقد ازدهرت بعض الفنون النثرية كالرسالة واضمحلت بعض الفنون كالخطابة ، وظهرت فنون جديدة كالقصة والمقامة .

ولم تكن هذه التطورات وليدة الصدفة ، وانما كانت نتيجة لعوامل سياسية واجتماعية وثقافية ، وكانت هذه العوامل نابعة من المجتمع العربى الذى تأثر بالتراث العربى وبالتراث الاجنبى وبالحياة الأجنبية التى سرت اليه نتيجة الاختلاط المباشر ونتيجة الاطلاع على الثقافات الفارسية واليونانية والهندية .

وسنتحدث هنا عن أبرز الفنون النثرية التى سادت فى العصر العباسى ، وسنولى مصر عناية خاصة ، وسيشمل حديثنا هنا فن القصة والخطابة والرسالة والوصية والمناظرة والمقامة ، وسنبرز تطور هذه الفنون وأبرز سماتها .

وبالله التوفيق

د. احمد امين

تمهيد

قامت الدولة العباسية على أنقاض الدولة الاموية ، وظلت الخلافة العباسية من سنة ١٣٢ الى سنة ٦٥٦ هـ ، ويقسم المؤرخون العصر العباسي اربعة عصور :

العصر العباسي الأول من سنة ١٣٢ الى سنة ٢٣٢ هـ .
العصر العباسي الثاني من سنة ٢٣٢ الى سنة ٣٣٤ هـ .
العصر العباسي الثالث من سنة ٣٣٤ الى سنة ٤٤٧ هـ .
العصر العباسي الرابع من سنة ٤٤٧ الى سنة ٦٥٦ هـ .

وقد بدأ العباسيون يعدون سرا لقيام دعوتهم منذ اواخر القرن الأول الهجري واتخذوا خراسان مقرا لدعوتهم ، واستطاع ابو العباس السفاح أن يعلن قيام الدولة العباسية ، واستطاعت جيوشه بقيادة ابى مسلم الخراساني أن تهزم جيوش مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية ، وصار ابو العباس اول خليفة عباسي .

وهكذا قامت الدولة العباسية على اكتاف الفرس ، وكان أمر الطبيعي أن يسيطر العنصر الفارسي على مقاليد الأمور في الدولة العباسية، وتولى الفرس ارقى المناصب وصارفهم وزراء وقادة وحجاب وكتاب .

ثم ان مظاهر الحياة تأثرت بالحياة الفارسية في الملبس والمآكل والأطعمة والترف والاحتفالات والاعياد ، وكان الفرس اصحاب حضارة عريقة اعجب بها العرب كما أن الفرس نقلوا الى العرب بعض العادات والمعتقدات السيئة ، وكثر الرقيق والجواري ، وكثرت مجالس اللهو والغناء ، وجاهر بعض المجان بالفسوق والزندقة وترجم ابن المقفع كتاب مزدك الى اللغة العربية لينشر الانحلال بين العرب ، وقتل الخليفة المنصور ابن المقفع لاتهامه بالزندقة ، وفتك الخلفاء من بعده بالزندقة.
وضمت الدولة العربية شعوبا مختلفة ذات حضارات عريقة وثقافات

متنوعة ، وتعربت تلك الشعوب وامتزجت الدماء بالتزاوج ، واتقنوا اللغة العربيـة حيث كانت اللغـة العربية لغـه الدين والعبادة ولغـة المنتصرين وكان اتقان العربية وسـيلة تقربهم من السلطة الحاكمة ، وتمهد لهم طريق الارتقاء فى المناصب ، وكانت المساجد تقوم بدور المدارس والجامعـات فى وقتنا الحاضر ، وانشـا الرشـيد مكتبة عظيمة سماها دار الحكمة ، وعنى بها المـامون وزادها اتسـاعا .

وظهر نوابـغ العلماء والادباء من العرب ومن غير العـرب ، وكانت مجالس الخلفاء والكبراء تضم كبـار العلماء والادباء وتجرى فيها المحاورات والمناظرات ، وتمنح المكافئات السخية ، وكلفت فيها الحرية العقليـة . واتسعت اللغـة العربية لجميـع العلوم والفنون ، ونشطت الترجمة من الفارسـية واليونانية والهندية والسريانية ، وكان الخلفـاء يشـجعون المترجمين ، ودخلت اللغـة العربية كلمات اجنبية ، وصار هنـاك النثر العلمى والنثر الادبى والنثر الفلسـفى والنثر التاريخى ، وتعددت فنون النثر من قصص وخطب ورسـائل ديوانية واخوانية ومناظرات ووصـايا وتوقيعـات وعهود .

وفى العصر العباسى الثانى سيطر الاتراك على الدولة بعـد ان خلعوا الخليفة المتوكل وقتلوه ، ومع ذلك فقد استمرت النهضة العلمية والادبية، واستمرت المسـاجد فى اداء دورها ، وكثرت المكتبات ، وكثرت دكاكين الوراقين ، ونشطت الترجمة ، وكثرت المناظرات بين الفرق الاسلامية ؛ وبينهم وبين الملحدين والزنادقة واصحاب الديانات الاخرى ، وكتبت قصص قصيرة مثل كتـاب (المكافاة) لاحمد بن يوسف الكاتب المصرى الذى برز فى عهـد الدولة الطولونية .

واستمرت النهضة الادبية فى العصر العباسى الثالث عصر البويهيين ، وظهر لون جديد من القصص القصيرة حيث كتب بديع الزمان الهمدانى

مقاماته ، وهى قصص قصيرة تدور حول المكدين الذين يتكسبون بالأدب، ولقيت المقامات رواجا كبيرا وقلدها الأدباء من بعـده .

أما العصر العباسى الرابع فلم يظفر فيه الأدب بجديد ، وصـار الاهتمام بالظاهر أكثر من الاهتمام بالجوهر ، وان لم يعـدم هذا العصر لمحات مضيئة فى مختلف المجـالات .

القصـــــة

كليلة ودمنـة

ترجمة (عبد الله بن المقفـع)

فى مطلع العصر العباسى وفى عهـد الخليفة المنصور ترجـم عبد الله ابن المقفع كتــاب (كليلة ودمنة) من اللغــة البهلوية (الفارسية القديمة) الى اللغــة العربية .

وكان الفرس قد نقلوا هذا الكتاب من الهند وترجموه الى الفارسية، ومؤلف الكتاب بيدبا الفيلسوف الهنـدى ، والفه لدبشليم ملك الهنـد ، وســماه كليلة ودمنة ، وجعله على السن البهائم والطير .

سبب تاليف الكتــاب

وكان السبب الذى من اجله وضـع بيدبا هذا الكتاب للملك دبشليم أن الاسكندر ذا القرنين لمـا فرغ من أمر ملوك المغرب ســار يريد ملوك المشرق ، وبدا فى طريقة بملك الهند ، ودعاه الى طاعته فرفض ، واستطاع الاسكندر أن يهزم جـ ش الهند وقتل ملكهم وولى عليهم رجلا من ثقاته ، فلما انصرف أتفق الهنود على أن يولوا رجلا من اولاد ملوكهم فملكوا غليهم (دبشليم) وخلعوا والى الاسكندر ، فلما استقر الامر لدبشليم طغى وبغى.

وكان فى زمانه فيلسوف من البراهمة يقال له : بيدبا ، فجمع تلاميذه وقال :اعلموا انى أطلت الفكرة فى دبشليم وما هو عليه من الخروج عن العدل ولزوم الشر ، وقد صحت عزيمتى على لقاء دبشليم ، ودخل بيدبا على الملك ووعظــة ، فقال الملك : لقد تكلمت بكلام ما كنت اظن احدا من اهل مملكتى يستقبلنى بمثله ، ثم امر بحبســه وتقييده ، ثم ان الملك ســهر وفكر فى امر بيدبا ، وارسل من ياتيه به ، وقال له : يا بيدبا اعـد على كلامك ، ففعل ، فامر بفك قيوده واكرمه وجعله وزيره ، فنشر العدل .

ولمـا استقر الأمر لدبشليم صرف همته الى النظر فى الكتب التى

وضعتها فلاسفة الهند لآبائه واجداده ، فوقع فى نفسه ان يكون له كتاب ينسب اليه ، فدعا بيدبا وقال له : احب ان تضع لى كتابا فيه سياسة العامة وتاديبها ، واخلاق الملوك وسياستها ، وليكن مشتملا على الجد والهزل واللهو والحكمة والفلسفة ، فطلب بيدبا مهلة عاما ، فأجابه الملك.

وجمع بيدبا تلاميذه واخبرهم بما عزم عليه ، واختار واحدا منهم وجعل يملى عليه وتلميذه يكتب ، حتى استقر الكتاب على غاية الاتقان، ورتبه اربعة عشر بابا ، وفى كل باب مسالة والجواب عنها ، وجعل كلامه على السنة البهائم والسباع والطير ليكون ظاهره لهوا للخواص والعوام، وباطنه رياضة لعقول الخاصة ، فاصغت الحكماء الى حكمه ، ومالت اليه الجهال عجبا من محاورة بهيمتين .

فلما تم الحول ارسل اليه الملك ، فانفذ اليه بيدبا : انى على ما وعدت الملك ، فليأمرنى بحمله ، فلما قرأه عليه قال الملك : يا بيدبا ، ما عدوت الذى فى نفسى ، فاطلب ما شئت ، فدعا له ، ولم يطلب شيئا غير المحافظة على الكتاب .

بعثة برزوية الى بلاد الهند

ولما ملك كسرى انوشروان عرش الفرس سمع عن الكتاب فارسل (برزوية) رأس الاطباء الى بلاد الهند لأجل كتاب (كليلة ودمنة) ومعه عشرون جرابا كل جراب فيه عشرة آلاف دينار ليأتى له بالكتاب ، واتصل برزوية بالعلماء والفلاسفة وتأدب عليهم ، واتخذ واحدا منهم لسره واطلعه على حقيقة امره ، وكان الهندى خازن الملك ، واجابه الى ذلك الكتاب وألى غيره من الكتب ، فنقله من اللسان الهندى الى اللسان الفارسى ، وقيل : انه قابل ملك الهند ، وأبلغه رغبة انوشروان فى الاطلاع على الكتاب ، ووافق ملك الهند .

تقديم ابن القفع للكتاب

قال ابن المقفع : هذا كتاب كليلة ودمنة ، وهو مما وضعه علماء الهند

من الأمثـال والأحاديث ، وينبغى لمن قرا هـذا الكتاب ان يعرف الوجوه التى وضعت له ، والى أى غاية جرى المؤلف عندما نسـبه الى البهائم ؟ ثم ان العـاقل اذا فهم هذا الكتاب ينبغى له ان يعمل بما علم منـه لينتفع به ، وضرب امثلة لمن لا يعمل بعلمه .

عرض الكتـاب

ينقسم الكتاب اربعة عشر بابا ، كل باب منها مستقل بنفسـه ، ويضع المؤلف لكل باب عنـوانا ملائما هو أسـم لشخصية أو لشخصيات مهمة فى هـذا الباب ، ويبدأ بسؤال الملك بيدبا الفيلسـوف : أضرب مثلا لكذا ، أو حدثنى عن كذا ، ويجيب الفيلسوف الملك ، ويبدا بقوله : وجدت فى حديث كذا ، أو : زعموا انه كذا ، ويحكى للملك ما اراد ، وقد يبدا الفيلسـوف بمقدمة مناسبة لـما طلب الملك قبل أن يقول : زعموا أنه كان كذا ، ففى باب (الحمامة المطوقة) يقول الملك حدثنى عن اخوان الصفا كيف يبتدأ تواصلهم ويسـتمتع بعضهم ببعض ؟ ويقول الفيلسوف : ان العاقل لا يعدل بالانسان شـيئا ، فالاخوان هم الأعوان على الخير كله ، والمواسون عندما ينوب من المكروه ، ومن امثـال ذلك الحمامة المطوقة والجرذ والظبى والغراب ، ويقول الملك : وكيف كان ذلك ؟ ويرد بيدبا : زعموا أنه كان ...

وسمى الكتـاب (كليلة ودمنة) والحقيقة ان كليلة ودمنة لم يردا الا فى الباب الأول ، وهو باب يستغرق اكثر من ثلث الكتـاب ، وكليلة ودمنة ابنا آوى (وهو حيوان يشبه الثعلب) ، وكانا ذوى دهاء ، واستطاع دمنة ان يحتل مكانة مرموقة عند الأسـد ملك المنطقة ، بل استطاع أن يقضى على منافسه الذى احتل مكانة عند الملك ، ولكن النهاية تجىء عادلة ويعرف الملك الحقيقة ويأمر بقتل دمنـة .

كيف وصل دمنة الى الأسـد (بنكلة) كان ملك المنطقة ، وحوله جنود مختلفة من الحيوان ، وتمنى دمنة أن يحتل مكانة عند الملك ، وحدث

اخاه كليلة فى ذلك ، محقر رايه وحذره من صحبة السلطان وضرب له امثلة وعبرا ، وشبه السلطان بالجبل الوعر الذى فيه الثمار الطيبة ، وهو معدن السباع المخوفة ، فالارتقاء اليه شديد ، والمقام فيه اشد واهول ، فاجاب دمنة : بانه يستطيع بالنفاق والمداهنة أن يصل الى هدفه ، وفعلا استطاع دمنة ذلك حيث دخل على الاسد وقال له : لم ازل بباب الملك مرابطا رجاء ان يحضر امر اعين الملك فيه برأيى ونفسى ، واعجب به الاسد بعد أن اظهر احتقاره له ، وصار دمنة فى معية الاسد .

ثم ان الاسد سمع صور الثور (شنزبة) فضاق به ، وطلب دمنة من الاسد أن يرسله ليحضر الثور ، وفعلا استطاع دمنه احضاره بعد ان اعطاه الامان ، وأعجب الاسد بالثور وصارت له مكانة عظيمة فحسده دمنة واغرى به الاسد .

الايقاع بين الاسد والثور

ابتعد دمنة اياما عن الاسد ثم دخل عليه ، فسأله الاسد عن سبب غيابه ، فاخبره ان شنزبة خلا برءوس جندك وحرضهم عليك وعرض بضعفك ، وضرب دمنة الامثال وحرضه على الثور ، فاقتنع الاسد ولام الثور لخيانته مع ما ناله من الاكرام ، ثم ان دمنة طلب من الاسد أن يرسله الى الثور ليعلم حقيقة امره ويخبر بها الاسد ، فوافق الاسد ، وانطلق دمنة الى الثور وحذره من الاسد حتى يجعل الثور يجافى الاسد فيرى الاسد منه علامات العصيان ، وراى الاسد ذلك فهجم على الثور وتقاتلا وسالت بينهما الدماء ، ودمنة وكليلة ينظران ذلك ، حتى قتل الثور وجرح الاسد ، وتقدم دمنة الى الاسد وهناه بسلامته وهلاك عدوه .

كشف المؤامرة ومقتل دمنة

غير أن الاسد فكر فى شنزبة وما كان عليه من راى وعقل ، وظن انه ربما كان مبغيا عليه فحزن وندم ، وبعد ايام وقف النمر على باب

كليلة ودمنة ، وسمع حوارا دار بينهما ، وعرف غدر دمنة ، وابلغ ام الاسد بذلك ، ورات ام الاسد حزن ابنها على شنزبة عندما تذكر حسن صحبته ، ولامته امه واخبرته بامر دمنة ، ونادى الاسد جموعه وعقد مجلسا حضره الاسد وامه والنمر ، وحضره دمنة ، ووجهت ام الاسد التهمة الى دمنة ، وحاول الدفاع عن نفسه ، فدفع الاسد دمنة الى القاضى فامر بحبسه ، وذهب اليه كليلة خفية ولامه على سلوكه وعدم سماعه النصيحة ، وسمع فهد سجين هذه المحاورة ، ثم عقدت المحاكمة وادلى النمر بشهادته ، وشهد الفهد السجين بما سمع ، وارسل دمنة الى السجن ، وذهب اليه احد اصدقائه واخبره ان كليلة مات حزنا على اخيه ، فبكى دمنة بكاء شديدا ، ثم وقف دمنة امام القاضى واعترف بذنبه ، وامر القاضى به فقتل شر قتلة .

قصص جانبية

وتتفرع الاحاديث وتاتى عشرات الامثلة سواء فى حديث الفيلسوف للملك او فى احاديث الحيوان والطير بين بعضها والبعض ، فكلما سنحت مناسبة يقول المتحدث : انما مثل ذلك كمثل كذا ، ويورد القصة ، ومن ذلك قول دمنة لكليلة : ان شنزبة بى مغتر ، وانا خليق ان اصرعه كما صرعت الارنب الاسد ، قال كليلة : وكيف كان ذلك ؟ قال دمنة : زعموا أن اسدا كان فى ارض كثيرة الوحوش والماء والمرعى ، وكان لا ينفعهن ما هن فيه من خوفهن من الاسد ، فاتينه فقلن له : انك لاتصيب منا الدابة الا بعد تعب ، فان انت امنتنا فلم تخفنا نرسل اليك لغدائك كل يوم دابة منا ، فرضى بذلك وصالحهن عليه ، ثم ان ارنبا اصابتها القرعة فقالت لهن : اى شىء يضركن ان انتن رفقتن بى واربحكن من الاسد ؟ ، فقلن لها : وما ذلك ؟ قالت : تامرن من يذهب معى الا يتبعنى ، نفعلن ما ذكرت ، وانطلقت متئدة حتى جاءت الساعة التى كان الاسد يتغدى فيها ، فجاع الاسد وغضب وقام عن مربضه يمشى وينظر ، فلما رآها قال : من اين جئت واين الوحوش ؟ فقالت : من عندهن

جئت وقد بعثني معي بارنب ، فلما كنت قريبا منك عرض لي أسد فانتزعها مني ، فقلت : انها طعام الملك ، فشتمك وقال : انا احق بهذه الأرض وما فيها منه ، فقال : انطلقي معي فارينيه ، فانطلقت به الى جب الماء ، فقالت : هذا مكانه وانا افرق منه فاحملني في صدرك فحملها ونظر في الجب ، فاذا هو بظلها وظله ، فوضع الارنب من صدره ووثب لقتال الاسد في الجب فغرق ، وانفلتت الارنبة الى سائر الوحوش فاعلمتهن بخبره .

هدف اخلاقي

ويهدف المؤلف الى هدف اخلاقي كما توضح هذه القصة ، ثم انه يتحدث عن ذلك صراحة حين يختم هذه القصة بقوله : فمن نظر في هذا فليعلم أن من اراد منفعة نفسه بضر غيره بالخلابة والمكر فانه سيجزى بما عمل عاجلا أو آجلا ، وترد كثير من الحكم في ثنايا القصة ، ومن ذلك قول بيدبا بعد قتل الثور ظلما : « فمن اعظم الخطايا قتل البرىء الذى لا ذنب له بالكذب والنميمة ، ومن علم من امر هذا الكذاب الذى اتهم البرىء بكذبه ونميمته شيئا فستر عليه فهو شريكه في الاثم والعقوبة.

ويهدف المؤلف الى التعليم والتوعية بطريق غير مباشر ، ومن ذلك ان الحمامة المطوقة حينما وقعت هي وصديقاتها في الشبكة وكانت زعيمة للحمام قصدن الجرذ ، وأخذ الجرذ في قرض العقد التى كانت فيها المطوقة ، ولكن المطوقة قالت له : ابدا بقرض عقد سائر الحمام قبلي وانصرف الي ، فاني قد كلفت لجماعتهن بالرياسة ، وقد ادين الى حقى في الطاعة والنصيحة ، واني تخوفت ان انت بدات بقطع عقدتى ان تمل وتكل ويبقى بعض ما معى ، وعرفت انك ان بدات بهن لم ترض وان ادركك الكلال حتى تخلصني مما انا فيه ، وهنا حث لمن يتولى رياسة قوم ان يهتم بهم ويقدم المصلحة العامة على مصلحته الخاصة .

غير أن النهاية السيئة للظالم لا تتحقق فى جميع القصص الواردة والغافل يلقى جزاء غفلته ، ففى باب (الحمامة والثعلب ومالك الحزين) يستطيع الثعلب خداع مالك الحزين والانقضاض عليه وافتراسه ، وسبب ذلك غفلة مالك وعدم احتراسه ، حيث يسأل الثعلب مالكا : ماذا تفعل ان اتتك الريح من ناحية اليمين ؟ ويجيب مالك : اضع راسى تحت جناحى الشمال ، فيسأله الثعلب : فان أتتك من ناحية الشمال ؟ فيجيب مالك : اضع راسى تحت جناحى اليمين ، فيسأله الثعلب : فان أتتك الريح من اليمين والشمال ؟ فيجيب مالك : أغطى راسى بجناحى ، فيقول الثعلب : وكيف ذلك ؟ فيعطى مالك راسه بجناحيه ، فيهجم عليه الثعلب ويفترسه ، والمؤلف يدعو هنا الى اليقظة والاحتراس فالحياة صراع لا مكان فيها للغافل .

تدخل ابن المقفع فى قصة كليلة ودمنة

ويبدو أن ابن المقفع حين ترجم كتاب كليلة ودمنة تدخل باضافة بعض المواقف والعبارات والنظريات من عنده ، ومن أمثلة ذلك قول كل من النمر والفهد للأسد :

قد علمنا أن شهادة الواحد لا توجب حكما فكر هنا التعرض لغير ما يمضى به الحكم ، وهذه نظرية يقررها الاسلام وتقضى بأن شهادة الواحد لا يحكم بمقتضاها القاضى ولابد من شهادة اثنين .

سمات الأسلوب

وكتاب كليلة ودمنة لا يعد قصة واحدة طويلة ، وانما هو مجموعة قصص يربط بينها خيط واحد هو الرغبة فى النصيحة والتعليم ، بل ان الباب الواحد يحوى مجموعة من القصص لا يكمل بعضها بعضا ، ولا تشترك الا فى الهدف كما بينا .

ويمتزج السرد والحوار فى هذا الكتاب ، ويأتى الأسلوب مترابطا لا يظهر فيه التكلف ، ولا يناقض ذلك أن القصص تأتى على السنة الحيوان

والغير ، فهذه طريقة فى الوعظ والتعليم تحقق الهدف وتدخل السرور على قلب القارىء ، والمهم ان تأتى الأحداث مترابطة متسلسلة لا تكلف فيها ولا افتعال .

واسلوب الكتاب سهل ليس فيه الفاظ غامضة الا قليلا واذا وردت بعض الألفاظ الغامضة علينا فان هذه الالفاظ كانت مستعملة فى تلك البيئة ، كما ان الأسلوب مرسل لا يتكلف السجع ولا المحسنات البديعة ، وكان ابن المقفع قوى الأسلوب سهل العبارات لا يتكلف السجع او المحسنات وكان اسلوبه هذا صورة لأسلوب عصره ، فقد عاش ابن المقفع فى العصر الأموى واوائل العصر العباسى ، وكان الكتاب ما يزالون يجرون على طبيعتهم فى التعبير .

وفى كتاب كليلة ودمنة جمل يتبين فيها اثر الاسلوب الفارسى مثل : « حتى غلب على صاحب البيت النعاس وحمله النوم » حمله بدلا من غلبه ، ومثل : « وتركوا التاج على راسه » بمعنى وضعوا ، وفى الفارسية كلمة تأتى بمعنى تركوا ووضعوا ، ومثل : « فقال الاسد لقرابينه » استعمل قرابين بمعنى خاصة الملك ، واستعمل الكاتب كلمات صحيحة غير شائعة مثل : المال ام اللذات ام الصوت ام أجر الآخرة » ؟ وهنا يستعمل الصوت بمعنى الصيت ، واستعمل لفظ (السلطان) بمعنى الجمع ، وهو صحيح .

والخيال عميق يظهر فى الحلول التى ترد فى هذه القصص ، ومن امثلة ذلك ما حدث فى قصة (الحمامة المطوقة) حيث تسقط الحمامات فى شبكة نصبها الصياد ، فتشير الحمامة المطوقة على زميلاتها بأن ينهض مرة واحدة حتى يقتلعن الشبكة ويطرن بها حتى يسقطن فى مكان به جرذ صديق للحمامة ، ويفعلن ما اشارت به عليهن ، وقرض الجرذ الشبكة وخلص الحمامات .

وفى اثناء القصص تتناثر التشبيهات والاستعارات والكنايات ،

ويكثر التشبيه التمثيلي حين يسال السائل عن شيء فيجيب المحدث : انما مثل كذا كمثل كذا ، فهو يشبه حالة بحالة ، وهذا هو التشبيه التمثيلي ، ومن امثلة ذلك قوله : « والمودة بين الصالحين بطيء انقطاعها سريع اتصالها ، ومثل ذلك كوز الذهب الذى هو بطيء الانكسار سريع الاعادة والاصلاح ان اصابه ثلم أو وهن ، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطيء اتصالها كالاناء من الفخار مكسرة ادنى شيء ثم لا وصل له ابدا » . ومنه أيضا قول السلحفاة للجرذ : « فان الرجل ذا المروءة قد يكرم على غير مال كالأسد يهاب وان كان رابضا ، والغنى الذى لا مروءة له يهان وان كثر ماله كالكلب الذى يهان وان طوق وخلخل » .

وقد احتل كتاب كليلة ودمنة مكانة عالية ، فقد كان لونا جديدا طريفا ورد على السنة الحيوان والطير فوافق هوى العامة والخاصة ، وكان العرب قد سمعوا شيئا من احداث الفرس وحكاياتهم ولكنهم لم يكونوا قد سمعوا هذا اللون من القصص الهادف ، وظلت لهذا الكتاب مكانة على مر العصور الادبية حتى عصرنا الحديث .

كتاب المكافاة
لاحمد بن يوسف

احمد بن يوسف من كتاب الدولة الطولونية التى حكمت مصر فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وكان أبواه من عمال الدولة العباسية ؛ ورحل الى مصر واشتغل فيها بالعلم والأدب ، ولكن أحمد بن طولون لم يطمئن اليه بعد أن ساءت العلاقات بينه وبين الدولة العباسية فحبسه ، ونشأ احمد بن يوسف كاتبا شاعرا واشتغل بعض الأراضى المصرية والتزمها ، ومنحه هذا خبرة بالحياة ولكنه عرضه للمظالم .

وكان احمد بن يوسف ـ كما كان والده من قبله ذا مروءة ونجدة ، وراى عصره مليئا بالمظالم الى جانب ما شهد من اصلاحات ، وكتب احمد بن يوسف هذه القصص يشيد بأهل الخير ويعيب على الظالمين ، ويبين أن العرف لا يذهب بين الله والناس ، وقد نص على ذلك فى مقدمة

كتابه ، ثم قال فى حديثه عن المكافاة على القبيح : « رجونا ان يكون ذلك عونا للاستكثار من مواصلة الخير وزجرا للنفس عن متابعة الشر وابعادها عن سورة الانتقام .

منهج الكتاب

ويضم الكتاب احدى وسبعين قصة قصيرة ، يورد اولا احدى وثلاثين قصة تحت عنوان (المكافاة على الحسن) تدور حول حسن الصنيع والمكافاة على الجميل بالجميل ، ثم يتبع ذلك احدى وعشران قصة عنوانها (المكافاة على القبيح) تحذر من فعل الشر خوفا من سوء المجازاة بالشر ، ثم يوورد القسم الثالث تحت عنوان (حسن العقبى) ويشتمل على تسع عشرة قصة تدور حول من وقع فى شدة ثم خلص منها .

ولهذه القصص قيمة اخلاقية وتاريخية وادبية ، اما القيمة الاخلاقية فقد التزم الكاتب بعرض قصص هادئة تحث على التمسك بحسن الخلق وعمل الخير واجتناب الشر انتظارا للجزاء من الله .

القيمة التاريخية للكتاب

اما القيمة التاريخية ففيه قصص توضح بعض ما جاء فى كتب التاريخ ، واحدى هذه القصص تصور ما اصاب يوسف والد الكاتب على يد ابن طولون وأعوانه ، وفيها قصص مصرية تصور النواحى الاجتماعية والاقتصادية فى مصر ، وتغيير الولاة والفتك بهم ودس السم لبعضهم ، وتصور نظام الالتزام والوساطة والشفاعة وايضا التجارة واللصوص وقطاع الطرق الى غير ذلك ، وتدل احدى القصص على أن المجرمين كانوا يختمون بخاتم خاص . وتدل على ان الحكام كانوا ينفذون الحدود ، اذ تقول احدى القصص : « فدعا به خالد وأمر بقطع يده » .

الزمان والمكان

أما عن الزمان والمكان فلا تقتصر القصص على أيام الدولة الطولونية ، وتحكى أحيانا أحداثا قديمة جرت قبل الاسلام فى الجزيرة العربية وفى

بلاد فارس والروم ، فهى تحكى عن عدى بن زيد والنعمان بن المنـذر ، وتحكى عن بعض ملوك الفرس وخيـانة فيروز بن يزدجرد للملك وما كان من قتله جزاء خيـانته ، وتحكى عن الخلفاء الأمويين والخلفاء العباسيين، على أن معظمها يحكى احداثا من العصر الطولونى ، وبالتالى فمعظم الاحداث تدور فى القاهرة وصعيد مصر ، اما القصص القديمة فتدور احداثها فى الجزيرة العربية وايران والعراق وتركيـا ، وتقع الأحداث فى مختلف الأمكنة : فى البيوت والحدائق والسـجون والصحراء وقصور الحاكمين ، وفى البر والبحر وفى كل مكان .

الشـــخصيات

اما الشـخصيات فمعظمها كما قلنا من شـخصيات العصر الطولونى ومن الشخصيات العباسية وتضم الوزراء والكتـاب والقادة والجنـود والعبيد واللصوص وغيرهم ، وقليل منها من العصور القديمة ، وترد فى القصص اسماء الشخصيات المصرية البارزة ، ومنهم ابو الحسين بن احمد المـادرائى ، وابو عبـد الله الواسـطى ، وحسن بن مهاجر كاتب احمد ابن طولون ، واحمد بن دعيم قائده ، كما نرى بعض الشخصيات النسائية ومنهن مرية زوج هشـام بن عبد الملك ثم مروان بن الحكم ، والخيزران ام الرشـيد ، كما تظهر بعض السـيدات غير المعروفات وبعض الجوارى بدون تحديد سـائهن ، ونادرا ما نرى الحيوان يؤدى دورا بارزا فى القصـة كما نرى فى الفحل الذى قتل جامع الصدقات الظالم .

القيمة الادبيـة للكتـاب

اما القيمة الادبية فالكاتب يعرض القصص فى اسلوب ادبى رصين ، ويحكم التعبير عن المعنى فى عبارة موجزة مثل قوله : « ان لم يقدر الزمان رفعتى الى منزلتك فلا تامنه على حطك الى منزلتى » ، وتصور القصص الاسلوب الادبى فى العصر الطولونى ، فهو لا يعمد الى السـجع والوان محسـنات البديعة ، وقد كان الاسـلوب المرسـل سـائدا فى القـرن الثـالث الهجرى ، وفى الكتـاب عبـارات مصرية هجـر بعضـها وبقى

بعضها ، ومنها التعبير ببراءة الساحة كما نعبر اليوم ، ويستعمل كلمة (ثبت) بمعنى قائمة فيقول : « ثبت من وقف بالباب » ويقول : « فلما بلحنا بما نطالب به » اى اعيينا وهى عربية فصيحة ، ويقول : « واملت ان يدعونى فاتحمل التزليل لهم » والتزليل ان يحمل الشخص شيئا من مائدة صديقه ، وهى فصيحة ، ويورد بعض العبارات العامية مثل : « فوجدناه قد ركب فحصانى على الباب » وما زالت تستعمل حتى اليوم ، والأصل فى التحصيل الجمع وتمييز ما حصل ، ويستعمل (كما) بمعنى حينما فيقول : « وافانى كما فتحت باب السجن » ، ويستعمل لفظ (فاظ) بمعنى مات وهو غير فصيح ، ويدل أسلوب الكاتب على انهم كانوا يستعملون بعض الكلمات الفارسية مثل ديوانبان بمعنى القائم على الديوان .

ويورد الكاتب على قلة بعض الأشعار وهى سمة غالبة على التاليف فى ذلك الوقت ، وقد قال المؤلف فى احدى قصصه الواقعية يمدح من حفظوا ذمته وحموه بعد ان تعرض القتل :

جزى الله خيرا معشر احقنوا دمى
وقد شرعت نحوى المثقفة السمر
دراهمهم مبذولة لضعيفهم
الحار عليهم فى رحالهم الشكر
وان نزلوا قطرا من الأرض شاسعا
فما ضره الا يكون بها قطر

ويورد فى احدى قصصه بيتا لشاعر سابق :

ظللنا بهنا نستنزل الدن صفوه
فينزل اقباسا بغير لهيب

ويورد الكاتب القصة ويبدؤها بقوله : « حدثنى فلان » واحيانا يورد القصة على لسانه كما فى القصة التى روى فيها حبس والده ، وبعض

هـذه القصص كما يبـدو من احداثهـا وشخصياتها واقعيـة ، وبعض القصص رمزية يبدو فيها الخيـال ويدخل الحيوان احيانا كشخصية من شخصياتها ، كما في القصـة التى اوردها : (أن مصدقا يجمع الصدقات جمع الصدقة من رجل حسن الطريقة ، ثم نظر الى فصيل سمين كان في الابل فقال لغلمانة : خذوا هـذا الفصيل حتى يصلح لنـا غذاء ، فقال صاحب الابل له : قـد اخذت زيادة على حقك ، قال : لابد لى من اخذه ، فصاح صـاحب الابل باعلى صـوته : كل هـذا بعينك يا جبار ، فجاء فحل برغو فاخذ بعضد المصـدق ولم يزل يضرب به الارض حتى قتله ، وانصرف الرجل بفصـيله) . وهـذه القصـة لا يمنع العقـل واقعيتها ، ولكنها تجرى على نمط مثيلاتها التى ترمز الى انتقام القـدر من الظـالمين .

المكافأة على الحسـن

ونورد هنا قصـة حول حسن الصنيع والمكافأة على الجميل بالجميل قال : « كان خالد القسرى وليا لهشام بن عبد الملك على العراق ، فأخرج ديوانبان خالد وثيقة على بعض المتضمنين (الضامنين للمال ، فدفعهـا اليه بين تعجله منه (أى ان الضامن أعطى الديوانبان برا) ، فدعا به خالد وامر بقطع يده ، فقال له : استبقنى ، فقال الأمير : وما يكون من مثلك ؟ فقال : ان لم يقـدر الزمان رفعتى الى منزلتك فلا تامنه على حطك الى منزلتى فيكون ما تحمده فقال الأمير : اطلقوه ، فلم يمض حول حتى ورد العراق يوسف بن عمر متوليا لعمله ، فحبس خالدا فى حجرة من ديوانه ووكل بباب الحجرة جماعة ، فتدسس الديوانبان حتى دخـل فى جملتهم ، وتحرم خالد طعام يوسف بن عمر خوفا من أن يكون مسموما ، فجعل الديوانبان فى منـديل ما يكف جوعتـه من طعـام ودخل عليـه كالمتجسس عن حـالة فقال له : انا الديوانبان الذى عفوت عنه وهـذا طعـام تأمن فيه ما تخافه ، واقام على ذلك اياما ياتيه بطرائف الاطعمة والفـواكه ، ثم دخل اليـه فقال : قـد استاجرت الدار التى فى هـذه الناحية واحضرت قوما اثق بهم حتى نقبت سربا الى موتعك ، ولم يبق

الا أن تركهن بعض بلاط هـذا المجلس فتقضى الى السرب ، وقد اعددت فى الدار نجيبين احدهما لك والآخر لى ، ثم ركهن خالد الموضـع وخرج من السرب ، وركبا نجيبيهما وحثا السير حتى لحقا مسلمة بن عبد الملك فشـفع لخالد الى هشـام بن عبد الملك ورده الى عمله ؛ والكاتب يورد هـذه القصـة مثالا للمكافاة على صـنع الجميل بالجميل ، ونحن نرى ان خالدا لم يصـنع جميلا حين ترك عقـاب المجرم ، وانه تهـاون فى اقامة الحـدود .

والشخصيات هنا خالد القسرى ويوسف بن عمر والديوانبان ثم الحراس ، والأحـداث محدودة حتى لا تتطرق الى أحداث فرعية ، وهذا ما يجب مراعاته فى القصـة القصـيرة ، واحداث القصـة نابعـة من العصر وتصـور كثيرا من مظاهر الحيـاة آنذاك ، وفيها العقـدة والاثارة والحل المناسـب ولا تدور القصص كلها حول الحكم والحاكمين ولا تقتصر شخصياتها على الرجال ، فاحيانا تدور القصة حول شخصيات من عامة الشعب وتظهر المراة بين شخصيات القصة ، ومما اورده أن رجلا ضاقت به الأحـوال ولم يعد يملك الا منزلا وجارية يحبها ، فبـاع المنزل بألف دينار وخرج الى مكـة ، وقال للجارية : يكون هـذا المـال فى وسطك ، فكانت اذا نزلت فى مكان حفرت فى خيمتها حفرة واودعت المـال فيها ، فاذا نودى بالرحيل استخرجته وشـدته على وسطها .

وفى احـدى المرات نسيت الجارية المـال ، فعاد الرجل الى المكان الذى كان فيه وجعل ينظر فى الأرض فرأى غلاما يرعى غنيمات فسـأله الغـلام عن أمره فأخبره بحاله ، فقام الغـلام واحضر المـال ورده الى صـاحبه ، ورفض ان يأخـذ مكافاة ، وسـاله الشـيخ : انت حـر او مملوك ؟ فقال : مملوك لشيخ هـذا الحى فقصد الرجل شيخ الحى وطلب منه أن يبيعه الغلام بأى ثمن ووعده بان يعتقه ، فسأله شيخ الحى : وما يحملك على هذا ؟ . فحكى له ما حدث ، فقال شيخ الحى تفعل به هذا لفعلة واحدة من الجميل اولاكها ؟ ولنـا فى كل يوم منه حسـنة ، اشـهد الجماعة انه حر لوجه الله وان ما يرعاه له .

ويهدف الكاتب الى معالجة بعض الظواهر الاجتماعية الفاسدة ، والقصة محببة الى النفس واسهل وصولا الى القلب وتأثيرا فيه ؛ وقد شاعت المؤامرات والتملق والخيانة ، واورد الكاتب قصصا بعنوان (المكافأة على القبيح) تبين ان فاعل الشر لابد ان يلقى شرا ، ومن أروع هذه القصص قصة يظهر فيها أحمد بن طولون يقول الكاتب :

كان احمد بن طولون مذعورا من خروج أبى عبد الرحمن العمرى ، فوافاه الخبر بقتل غلمان ابى عبد الرحمن اياه ، ثم صارت اليه جماعة تقارب العشرة ، ومعهم راس ، فقالوا : نحن غلمان العمرى وهذا راسه ، فجمع الناس وسألهم عن الراس فاجمعوا على انه راس ابى عبد الرحمن ، وان الغلمان من خاصته ، فسألهم ابن طولون : هل كان ابو عبد الرحمن مسيئا اليكم . قالوا لا والله ، ولقد كان محببا الينا ومفضلا علينا ، قال : فما حملكم على قتله ؟ . قالوا : طلبنا الحظوة عندك ، فقال : قتلتم مولاكم المحسن اليكم بالتطرف الى المزيد ، ثم أمر بهم فاخذتهم السياط حتى سقطوا ، وضربوا على رءوسهم بالشادوخ حتى ماتوا جميعا وهكذا يضرب ابن طولون مثلا رائعا فى الترفع عن تأييد الخيانة .

وتظهر النساء أيضا فى حكايات المكافأة على القبيح ، ومما ورد أن مرية زوج هشام بن عبد الملك ثم مروان بن محمد دخلت على الخيزران أم الرشيد ونسوه من بنى العباس وقد أضر الزمان بمرية حتى انها لا تجد ما تستتر به ، فعرفتهن بنفسها ، فذكرتها زينب زوجة ابراهيم الامام باليوم الذى دخلت فيه على مرية تستوهب جثة زوجها ابراهيم حتى لا يمثلوا به ، فقالت لها مرية وهى كالحة : ما النساء والدخول فى أمور الرجال ، ثم أمرت باخراجها من الدار بغلظة .

حسن العقبى

أما القسم الثالث من الكتاب فقد عنون له الكاتب بعنوان : (حسن العقبى) ويحوى قصصا عن اشخاص وقعوا فى أزمات مالية

او نفسية ثم ردت اليهم اموالهم ونفوسهم ولاقوا الفرج بعد الشدة ، كما نرى فى القصة التالية :

حكى محمد بن صالح الغورى قال : كانت لى بضاعة اعود بفضلها على شملى (من اعول) فخرجت فى معاملات فى الصعيد فجمعتها ، وكان مقدارها خمسمائة دينار ، وخرجت أريد الفسطاط فى رفقة كثيرة ، فلما كان منتصف طريقنا وافى جمع من الصعاليك فسلب الناس جميعا ، ودهشت ، فرايت منهم شابا حسن الصورة فقلت له : والله ما املك غير هذا الكيس ، فارفعه لى عندك ، فقال : واين بيتك بالفسطاط ؟ قلت : فى دور عباس بن وليد ، فقال : ما اسمك ؟ قلت : محمد الغورى ، وجاء منهم من قلع ثيابى ، وانصرفوا عنا ، ودخلنا الفسطاط ونحن فقراء ، وانى لجالس على درجة المسجد بين المغرب والعشاء الآخرة حتى رأيت رجلا قد وقف بى فقال لى : ههنا منزل محمد الغورى ؟ قلت : انا هو ، ولا والله ما اهتديت الى الرجل الذى اعطيته المال لانه كان عندى اول ذاهب ، فقال لى : عنيتنى ، واخرج الكيس فدفعه الى ، فردت على جدتى وتطعمت الحياة ، وكان بالقرب منا قائد فصرت باللص الى القائد ، وقصصت عليه قصة الرجل فاحسن تلقيه وخلع عليه وضم اليه عدة وافرة ، ولم يزل فى حيزه الى ان توفى .

وهى قصة قصيرة تحكى ما وقع او ما يمكن أن يقع ، وتظهر لنا شخصيتان : الغورى واللص النبيل ، وهناك رفاق الغورى واللصوص شخصيات ثانوية تزيد الصراع فى القصة ، ويأتى حل العقدة فى موقفين ، فحينما تتأزم الامور يبادر الغورى فيدفع الكيس الى أحد اللصوص ، وهذا حل جرىء وطريف وان كان احتمال النجاح فيه ضئيلا ، ثم يأتى الحل النهائى حين يعيد اللص الكيس الى صاحبه ، وان كان الحل غير متوقع ولكنه غير مستحيل ، ولا نعدم الشهامة فى نفوس هؤلاء .

وهكـذا نرى كتـاب المكافاة يحوى قصصا قصـيرة متنوعة هادفة ، فيها الحبكـة الفنية وفيها العقـدة المثيرة والمفاجاة والحل الذى يتقبله العقل والخيـال ، وجاء الأسـلوب ممثلا للغـة الكتابة فى ذلك العصر ، وقـد أسـهم الكتاب فى تطور القصة القصـيرة فى الأدب العربى .

الخطـابة وتطورها

الخطـابة فن قـديم عرف منذ الجاهلية ، وكان مزدهرا فى العصر الجاهلى حيث كانوا يعتمدون عليه فى التأثير على الجماعات فى مختلف الظـروف ، وكان العـرب أمة أميـة لا يجيـد القراءة والكتـابة منهـم الا القليلون ، فضعف شـأن الرسـالة وازدهر فن الخطـابة ، فكانوا يخطبون فى الحرب ، ويخطبون فى الوفـود ويخطبون عند المفاخرة وعنـد الزواج ، واشـتهر منهم خطبـاء مثل قس بن سـاعدة .

وظل للخطابة مكانة عاليـة عندما جاء الاسـلام حيث يتطلب الأمر شرح المبـادىء الاسـلامية والدعـوة الى اعتناقهـا ، وكان النبى عليـه السـلام خطيبا يسـتولى على القلوب ، وكان كثير من أصحابه خطبـاء مفوهين وعلى رأسـهم على بن أبى طالب ، وكذلك كان فى العسكر المعارض خطباء بارزون مثل سـهيل بن عمرو والذى أسلم مؤخرا وصار من أحسن الدعاة فى الاسـلام ، وحقا أن النبى أهتم بتعليم الناس القراءة والكتابة ولكن انتشـار التعليم يحتـاج الى فترة طويلة فظل للخطابة المكانة الأولى فى ظل الدعوة الاسـلامية .

وتنهض الخطابة أو يضعف شانها تبعا لظروف الحيـاة فى كل عصر ، وفى ظلال الدولة الأموية كثرت الأحزاب والفرق المعارضـة ، فكان هنـاك الشـيعة والخوارج والزبيريون ، وكان لهؤلاء خطباؤهم ، كما كان الأمويون يحاولون ابطـال حجج خصومهم واثبات أحقية الأمويين بالخلافة ، وكلما اسـتقرت الأمور وضعفت المقاومة ضعف شـأن الخطابة وخفت صـوت الخطبـــاء .

وهكذا كان شأن الخطابة فى العصر العباسى ، فقد نشطت الخطابة نشاطا عظيما فى صدر الدولة العباسية ، فعندما انتصرت الثورة الدعاسية كان العباسيون فى حاجة الى جمع الناس حولهم واقناعهم بأحقية العباسيين بالخلافة ، وبأن الأمويين كانوا مغتصبين للخلافة ، فكانوا يتحدثون فى خطبهم عن ارثهم للنبى عليه السلام ، وبان اهل البيت احق بالقيام بالامر ، وبأن معاوية وثب على الخلافة واغتصبها ، وكان للخوارج بقية يثورون على العباسيين ويحضون على الثورة عليهم .

وكان دعاة العباسيين قد دعوا لأهل البيت دون ان يحددوا اى طوائف اهل البيت سيتولون الخلافة ، وظن العلويون ان الأمر سيكون لهم لانهم اولاد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم ايضا أولاد على ابن عم رسول الله ، ولكنهم فوجئوا بان العباسيين قبضوا على زمام الامور ، فقام خطباء الشيعة يحثون الناس على البيعة للعلويين ويبينون احقيتهم بالخلافة ويبطلون حجج العباسيين ، وقام العباسيون يخطبون فى الناس ويحثونهم على البيعة لهم ويبطلون حجج العلويين ويتهمونهم بالضعف والتخاذل وأنهم باعوا الخلافة للأمويين وتسببوا فى اذلال اهل البيت ، ولكلا الطرفين حجج سنشير الى بعض منها .

وهكذا نرى ان الخطابة نشطت فى صدر الدولة العباسية لوجود دواع سياسية تستدعى نشاطها ، وسنرى ان الخطابة سيضعف شأنها بعد أن تستقر الأمور للعباسيين ، وفى صدر الدولة العباسية اسعفت الظروف العباسيين بالخطباء المفوهين الذين يتحملون البيعة ويقومون بأعبائها ، وكان عبد الله العباسى من اخطب الناس ، وورث العباسيون عنه الفصاحة ووهبوا ملكة الخطابة ، فكان ابو العباس السفاح عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس خطيبا فصيحا قوى الحجة ، وهو أول خليفة عباسى بويع بالخلافة ، وكان عمه داود ابن على من أخطب الناس ، يقول عنه الجاحظ : « وكان أنطق الناس وأجودهم ارتجالا ، وقال : انه لم يتقدم فى تحبير خطبة قط » اى انه

لم يعد خطبة قبل القائها وانما كان يرتجل الخطبة على المنبر ارتجالا ، وكثر الخطباء فى تلك الفترة وتملكوا مشاعر الناس بفصاحتهم وقوة حججهم .

خطبة ابى العباس السفاح

ونورد هنا نموذجا للخطابة السياسية فى صدر الدولة العباسية خطبة ارتجلها ابو العباس السفاح حين بويع بالخلافة فى الكوفة ، وهى خطبة طويلة نوجزها بحيث نوضح الاهداف منها ، يقول ابو العباس :

« الحمد لله الذى اصطفى الاسلام واختاره لنا وايده بنا والزمنا كلمة التقوى وجعلنا احق بها واهلها ، وخصنا برحم رسول الله وقرابته، وانشانا من آبائه وانبتنا من شجرته ، وانزل كتابا يتلى فقال : (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا) ، وزعمت السبئية الضلال ان غيرنا احق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ، فشاهت وجوهم ، بم ؟ ولم ايها الناس ؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم وبصرهم بعد جهالتهم وانقذهم بعد هلكتهم ، واظهر بنا الحق وادحض بنا الباطل ، واصلح بنا منهم ما كان فاسدا ، وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة اهل تعاطف وبر ومواساة ، فتح الله ذلك منة ومنحة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلما قبضه الله اليه قام بذلك الأمر من بعده اصحابه وامرهم شورى بينهم ، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها وتداولوها بينهم فجاروا فيها وظلموا اهلها فاملى الله لهم حينا ، وتدارك الامر بنا وولى نصرنا ليمن على الذين استضعفوا فى الارض ، وما توفيقنا اهل البيت الا بالله » .

وهذه خطبة جامعة مؤكدة لكل ما يريد العباسيون اثباته ، ومبطلة لكل ما يريد العباسيون ابطاله ، فقد تحدث عن فضل اهل البيت وان الله نص عليهم فى القرآن ، وتحدث عن اثر العباسيين فى نصرة الاسلام وهداية الناس بعد ضلالتهم وانقاذهم من الظلم ، كما اكد احقية

العباسيين بالخلافة ودلل على ذلك بأنهم رحم رسول الله وقرابته ، وبان الله انشأهم من آبائه ، يشير الى أن العباسيين اولاد عم النبى عليه السلام ، اما العلويون فاولاد بنته ، والعصبة فى الميراث انما تكون من الرجال ؛ اما البنات فلا يكن عصبة ولا يرثن الخلافة ، ورد على الخصمين اللدودين وهما الشيعة والامويون ، فوصف السبئية بالضلال ، والسبئية اتباع عبد الله بن سبأ وهو يهودى تظاهر باعتناق الاسلام ، وهو الذى اشاع فكرة فضل على على جميع الصحابة وان روح الله حلت به ،واتبعه كثير من الشيعة ، وكان يريد بذلك الكيد للاسلام وتفريق المسلمين ، ولذلك استعمل الخطيب لفظ (زعم) وقبح وجوههم ، وأتى باستفهام للانكار ، واشار بلفظ الآباء الى ابطال حقهم فى الخلافة ، ثم شنع على الامويين وذكر أن الامور كانت مستقيمة حتى وثب بنو حرب ومروان واغتصبوا الخلافة وظلموا الناس فاملى الله لهم ثم اخذهم بأيدى العباسيين ، واقتبس الخطيب من القرآن فى ستة مواقف :

(والزمنا كلمة التقوى وجعلنا احق بها واهلها) ، واقتبس (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا) ، واقتبس (وأمرهم شورى بينهم) ، وقال : فاملى الله لهم ، وهو من قوله تعالى : (انما نملى لهم) واقتبس فى قوله : ليمن على الذين استضعفوا فى الارض ، والآية تقول : (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض) ، وختم بقوله : وما توفيقنا اهل البيت الا بالله ، وفى القرآن (وما توفيقى الا بالله) .

وكان العباسيون يخطبون فى كل مكان يؤكدون حقهم فى الخلافة ، وكان داود بن على عم السفاح من اخطب الناس وكان يرتجل ولا يعد الخطبة ، وخطب فى مكة يبين اهداف العباسيين من الثورة ونبل مقصدهم ويعيب خصومهم ، ومن قوله فى هذه الخطبة : « شكرا شكرا ، انا والله ما خرجنا لنحتفر فيكم نهرا ، ولا لنبنى فيكم قصرا ، اظن عدو الله أن لن نظفر به أن أرخى الله له فى زمامه حتى عثر فى فضل

خطامه ! ، فالآن عاد الأمر فى نصابه ، وطلعت الشمس من مطلعها ، واخذ القوس باريها ، وعاد النبل الى النزعة ، ورجع الامر الى مستقره فى أهل بيت نبيكم أهل بيت الرأفة والرحمة » .

وتدور الخطبة حول المعانى التى تناولها أبو العباس السفاح ، وقد اكد حق العباسيين فى الخلافة بايراد المعنى فى جمل عديدة متوالية ، واتى ببعض الأمثلة العربية مثل قوله : « اخذ القوس باريها ، وعاد النبل الى النزعة » وزاد الخطيب هنا تاكيده لنيل الهدف وانهم ما خرجوا لمغنم شخصى .

ثم ولى الخلافة أبو جعفر المنصور ، وكان قاسيا شديد البطش فنكل بالمعارضين وفى عهده ثار العلويون بزعامة نفر من اولاد الحسن والحسين فقبض عليهم المنصور والقى بهم فى غياهب السجون ، واستمرت الخطابة السياسية مزدهرة أيام أبى جعفر المنصور ، وكان المنصور خطيبا مفوها .

خطبة ابى جعفر المنصور

وعندما قبض المنصور على عبد الله بن حسن واخوته والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته خطب فى خراسان معقل الشيعة حيث صعد المنبر فحمد الله وصلى على نبيه ثم قال : « يا أهل خراسان ، انتم شيعتنا وانصارنا واهل دولتنا ، وان اهل بيتى هؤلاء من ولد على بن أبى طالب تركناهم — والله — والخلافة ، فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير ، فقام فيها على بن ابى طالب فتلطخ وحكم عليه الحكمين فافترقت عنه الأمة واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثبت عليه شيعته وانصاره واصحابه وبطانته فقتلوه ، ثم قام من بعده الحسن بن على فوالله ما كان فيها برجل ، ثم قام من بعده الحسين نخدعه اهل العراق واسلموه حتى قتل ، ثم وثب علينا بنو أمية فاماتوا شرفنا واذهبوا عزنا ونفونا من البلاد ، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وانصارا ، فاحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ، واصار الينا ميراثنا عن نبينا ، فقر الحق مقره وقطع

دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ، فلما استقرت الأمور فينا وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا .

جهلا علينا وجبنا عن عدوهم لبئست الخلتان الجهل والجبن » .

وابو جعفر يحاول هنا استمالة اهل خراسان ، والخراسانيون يؤيدون اهل البيت ، وكل من العلويين والعباسيين من اهل البيت ، وقد حاول استمالتهم الى جانبه فقال لهم : انتم شيعتنا وانصارنا ، ثم قال لهم : فاحيا شرفنا وعزنا بكم ، وعاب المنصور على العلويين ليصرف اهل خراسان عنهم ، حتى ان على بن ابى طالب لم يسلم من الطعن عليه ، فعاب على على انه حكم الحكمين ابا موسى الاشعرى وعمرو بن العاص ، وكان هذا التحكيم سببا فى اختلاف الرأى وخروج كثير من انصار على عليه وقتله فى نهاية الامر ورجحان كفة معاوية ، وبايع اصحاب على الحسن ولكنه تنازل عن الخلافة لمعاوية لينهى النزاع ويحفظ الدماء ، واعطاه معاوية أموالا كثيرة ، ولذلك قال المنصور : (فوالله ما كان فيها برجل) ، ثم بايعوا الحسين وحثه اهل العراق على المسير اليهم فسار ولكنهم تخلوا عنه واسلموه الى القتل ، واستقر الامر لمعاوية ، وهذا كفيل بالتشنيع على العلويين وصرف الانظار عنهم .

ثم تحول المنصور الى الأمويين ووصفهم بانهم اغتصبوا الخلافة وارتكبوا جرائم بشعة واماتوا شرف اهل بيت رسول الله ، ولم يبق الا أن يثور العباسيون وهم أهل البيت ، فاستردوا الخلافة وأعادوا الأمر الى نصابه وقضوا على القوم الظالمين ، وبدلا من ان يشكرهم ابناء عمومتهم العلويون ثاروا عليهم واشعلوا نار الفتنة ظلما وحسدا بعد ان جبنوا أمام الأمويين .

ويلجأ الخطيب الى التكرار لتأكيد المعنى كما نرى فى قوله : « وثبت عليه شيعته وانصاره واصحابه وبطانته » ليؤكد ثورة الجميع عليه ، كما انه يقتبس من القرآن الكريم ومن الشعر فيقتبس الآية : (فقطع

دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) . ويقتبس بيت الشعر ليصف العلويين بالجهل والجبن .

وبفضل حزم المنصور وشدته خفت صوت المعارضة ولجأ المعارضون الى السرية والاختفاء ، وترتب على ذلك ضعف الخطابة السياسية وتخلت عن الحدة التى رايناها فى مطلع الدولة العباسية .

خطبة المأمون

ومن الخطب السياسية التى تطالعنا فى نهاية القرن الثانى خطبة الخليفة المأمون حين بويع بالخلافة ، فقد صعد المنبر فحمد الله وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ثم قال : « أيها الناس ، انى جعلت لله على نفسى ان استرعانى أموركم ان اطيعه فيكم ، ولا اسفك دما عمدا لا تحله حدوده وتسفكه فرائضه ، ولا آخذ لأحد مالا ولا اثاثا ولا نحلة تحرم على ، ولا احكم بهواى فى غضبى ولا رضاى الا ما كان فى الله وله ، جعلت كله لله عهدا مؤكدا وميثاقا مشددا او أفى رغبة فى زيادته اياى فى نعمتى ، ورهبة من مساءلته اياى عن حقه وخلقه ، فان غيرت او بدلت كنت للغير مستاهلا وللنكال معرضا ، واعوذ بالله من سخطه وارغب اليه فى المعونة على طاعته ، وان يحول بينى وبين معصيته » .

ونحن لا نرى فى هذه الخطبة مظاهر الحدة التى رايناها فى الخطب السابقة ، ولا نرى تاكيدا لحق العباسيين فى الخلافة ، فقد استقرت الأمور لهم ، وتطالعنا هذه الخطبة بصفات المأمون واخلاقه فهو يعطى لله عهدا ويؤكد للناس انه لن ينتهك حرمة الدماء ولا الأموال ، وانما يحرص على تنفيذ شرائع الله ، وقد وفى المأمون بهذا العهد ، ونريد ان ننبه الى ان الخلفاء كانوا يتصرفون فى الأموال كما يرون ، ولم يكن هناك من يحاسبهم ، وكان هذا امرا متعارفا فى تلك العهود ، ونرى فى هذه الخطبة بعض القوانين المتبعة فى الفقه ، فهو يعد بالا يحكم فى

غضبه ، وهو قانون نص عليه الفقهاء لأن الغضب يجمح بالقاضى ويخرجه عن حد الاعتدال ، ثم انه يقطع على نفسه عهد الله وكانه القسم الذى يؤديه القضاة قبل توليهم القضاء .

فى القرن الرابع الهجرى

وارتبطت الخطابة السياسية بالظروف السياسية للدولة وللدويلات المتفرعة منها ، وكانت الدولة الحمدانية بقيادة سيف الدولة الحمدانى تعيش حياة كفاح ضد الدولة الرومية ، وقضى سيف الدولة الحمدانى حياته كلها فى حروب طاحنة ، وكان هذا الموقف يتطلب الخطباء الذين يستنفرون الرجال ويحضون على الجهاد فى سبيل الله ، ومن هؤلاء الخطباء ابن نباتة الفارقى ، ومن خطبه التى يحض فيها على الجهاد قوله :

« من وصل حبل الله اوصله ، ومن أخمل حقه اخمله ، ومن قعد عن نصرته خذله ، ومن كان لله كان الله له ، فانفروا ــ رحمكم الله ــ كما أمركم الى جهاد عدوه ، واعلوه بالمغار عليه قبل مغاره عليكم وعلوه ، وانتهزوا الفرصة فيه بتشاغله قبل خلوه ، وانهضوا اليه قبل نهوضه اليكم ودنوه ، فانكم ان قعدتم عن جهاده نهض اليكم ، وان لم تنصروا الله نصره عليكم كدابه فيمن رايتموه من اهل الثغور ، الذين احل بهم دواهى الأمور ، ولقد كانوا اكبر منكم جهادا ، وأوفر عددا واستعدادا ، ابلاهم الله بما شيب راس الوليد ، واطفا من صدور اكثرهم نور التوحيد ، وأصار الصابرين منهم الى الأسر وثقل الحديد ، واسلم من سلم منهم الى التشتيت والتبديد » .

ويعمد الخطيب هنا الى استثارة العاطفة الدينية واقناعهم بان الجزاء من جنس العمل ، ويحذرهم من عاقبة القعود عن الجهاد ، ويلجأ الخطيب الى التكرار للتاكيد ، كما انه يخاطب العقول ويقنعهم باستغلال الفرصة وأن الهجوم خير وسيلة للدفاع ، ويضرب الأمثلة باهل الثغور الذين قعدوا عن الجهاد فحلت بهم الدواهى وصاروا الى القتل

والاسر والتشتيت ، واهتم الخطيب هنا بالاسلوب فجاء اسلوبه مسجوعا واهتم بالمقابلة والازدواج ولجأ الى التهويل كما نرى فى قوله : « شيب راس الوليد » كناية عن هول الكارثة ، ونرى الاستعارة ايضا فى قوله : « من وصل حبل الله اوصله » حيث شبه طاعة الله بالحبل ، وكان هدفه التاثير النفسى العميق ، واتى الخطيب بالجملة الدعائية حيث يقول « رحمكم الله » .

الخطب الاجتماعية والدينية

واذا كانت الخطابة السياسية قد ضعفت فان الخطابة الإجتماعية قلت ايضا واقتصرت على بعض المناسبات الهامة مثل موت خليفة وتولى خليفة ، اما الخطابة الدينية فقد استمرت فى المناسبات الدينية فى الجمع وفى عيد الفطر وفى عيد الأضحى ، وجاءت المعانى مكررة ، فهى ترغب فى الطاعة وتحذر من المعصية ، وفى العيدين كان الخطباء يبينون للناس المبادىء التى يسيرون عليها ففى عيد الفطر يتحدثون عن زكاة رمضان مقدارها ومستحقيها ووقت اخراجها ، وفى عيد الأضحى يتحدثون عن الاحرام والطواف والوقوف بعرفة وما الى ذلك ، وكان الخطيب يعد الخطبة قبل القائها ، وربما اعدت له فحفظها والقاها .

ومن الخطب الاجتماعية خطبة ابن عتبة يهنىء المهدى بالخلافة ويعزيه فى ابيه المنصور : « آجر الله امير المؤمنين على امير المؤمنين قبله ، وبارك لأمير المؤمنين فيما خلفه له امير المؤمنين بعده ، فلا مصيبة أعظم من فقد امير المؤمنين ، ولا عقبى افضل من وراثة مقام امير المؤمنين ، فاقبل يا امير المؤمنين من الله افضل العطية ، واحتسب عنده أعظم الرزية » . وكان الخطيب بارعا فى هذا الموقف الصعب واستطاع أن يهنىء ويعزى ويجمع للخليفة الجديد الحسنيين : ثواب الله ومجد الخلافة .

ومن المناسبات التى كانت تلقى فيها الخطب مناسبة الزواج ، وهى عادة موروثة عن الجاهلية وبقيت فى ظل الاسلام ، وكان ولى امر العريس

ذلك ، ثم يخطب ولى امر العروس فيشيد بها ويتحدث عن نسبها وخلقها.

وعندما زوج المأمون ابنته من على بن موسى الرضا الذى عقد له البيعة بولاية العهد خطب المأمون فقال بعد حمد الله والصلاة على نبيه : « فان الله قد جعل النكاح دينا ورضيه حكما وأنزله وحيا ليكون سبب المناسبة ، الا وانى قد زوجت ابنة المامون من على بن موسى وامهرتها اربعمائة درهم اقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتماء الى ما درج اليه السلف ، والحمد لله رب العالمين » . وهى خطبة موجزة ولكنها مغنية فقد بين مشروعية النكاح واعلن الزواج واكد اقتداءه بالرسول عليه السلام فى مقدار المهر ، وهو مهر قليل اذا نظرنا الى مكانة العروس والعريس ، ولكنه الاقتداء بالرسول وقد أوجز المامون لانه ليس فى حاجة الى بيان مكانة العروس فهى بنت أمير المؤمنين .

خطبة المامون فى عيد الأضحى

ونورد هنا خطبة للمامون القاها فى عيد الأضحى ، وكان المامون فصيحا جهير الصوت حلو الحديث ، ومما جاء فى هذه الخطبة : « ان يومكم هذا يوم أبان الله فضله واوجب تشريفه وعظم حرمته ووفق له من خلقه صفوته ، وابتلى فيه خليله وفدى فيه من الذبح نبيه ، وجعله خاتم الايام المعلومات العشر ، ومتقدم الايام المعدودات من النفر ، يوم حرام من أيام عظام فى شهر حرام ، يوم الحج الاكبر ، يوم دعا الله الى مشهده ونزل القرآن بتعظيمه ، قال الله جل وعز : (وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) . فتقربوا الى الله فى هذا اليوم بذبائحكم وعظموا شعائر الله ، واجعلوها من طيب اموالكم وبصحة التقوى من قلوبكم فانه يقول : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) .

والمامون فى هذه الخطبة يعظم يوم عيد الأضحى حيث فضله الله على سائر الايام ، ففيه حج بيت الله الحرام ، وفيه ابتلى الله ابراهيم

عليه السلام حيث اوحى اليه فى المنام ان يذبح ابنه اسماعيل فأظهر الطاعة لله واصطحب ابنه ليذبحه فكافأهما الله بأن فدى اسماعيل بذبح عظيم ، ويتحدث الخطيب عن فضل هذا اليوم فهو خاتم الايام المعلومات وهى الأيام العشرة الأولى من شهر ذى الحجة ، وهو ايضا متقدم الأيام المعدودات التى ذكرت فى القرآن الكريم وهى الايام التى نعقب يوم الوقوف بعرفة ، حيث ينفر الحجاج من عرفة الى منى ، ويوصى الناس بان يتقربوا الى الله فى هـذا اليـوم بالذبائح من طيب اموالهم وبنية خالصـة لله ، ويرسيهم بتقوى الله ، وقد اقتبس الخطيب من القرآن الكريم آيتين : (واذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا ..) ثم الآية : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ...) .

وقد اتسمت الخطابة على وجه العمـوم بحسن اختيـار الألفـاظ الملائمة ، ووضوح المعانى ، والميـل الى التكرار للتأكيـد ، وجمعت بين محاولة الاقنـاع واسـتثارة العواطف ، واقتبست فى كثير من المواقف من القرآن الكريم ، وضمنت بعض ابيات الشعر ، واهتمت بجمال الصياغة واسـتخدمت السجع فى بعض الأحيـان .

الرســائل

بدات الرســائل تحتل مكانتها منذ ان جاء الاسلام وعمل على تعليم الناس القراءة والكتابة ، وكتب النبى عليه السـلام رسائل الى الدول المجاورة ، وفى عهد الخلفاء الراشدين تبودلت الرســائل بين الخليفـة والولاة فى مختلف الشئون السياسية ، ولمـا قامت الدولة الأموية اتخذ معاوية بن ابى سـفيان ديوانا للرســائل ، وكان عمر بن الخطاب اول من دون الدواوين فاتخـذ ديوانا للجنـد وديوانا للخراج يتولى الشـئون المـالية ، وزاد معاوية فاتخذ ديوانا للرســائل وديوانا للخاتم ، وانتقل هذا التقليد الى الاقاليم وصـار لولاة الأقاليم دواوين الرسائل ، واستمر ازدهار الرســائل فى عهد الدولة العباسـية وعظم شأن ديوان الخلافة واتخذ ولاة الأقاليم والوزراء والقادة دواوين مشـابهة .

ديوان الرسائل

اتخذ الخليفة ديوانا للرسائل وضم اليه ابرز الكتاب ، ولم يكن الوصول الى منصب كاتب ديوان الرسائل سهلا ، وكان لابد للكاتب ان يجيد عددا من العلوم اللغوية والعقلية والدينية ليؤدى مهامه فى التعبير عن الخليفة وفى الخراج والحساب ، وان يلم بآداب السياسة والمجالس، والف ابن قتيبة كتابه (أدب الكاتب) ، وكانوا يمرون باختبارات دقيقة فاذا نجح الكاتب واظهر براعة فائقة وثقافة عالية ضم الى ديوان الرسائل، واتخذ ولاة الأقاليم دواوين مشابهة لديوان الخليفة واختاروا لها أمهر الكتاب ، وكذلك فعل الوزراء والقادة ، وعظم شان كتاب الدواوين وصارت لهم مكانة اجتماعية رفيعة ، وتولى بعضهم ولاية الأقاليم ، وتولى بعضهم الوزارة ، وثار التنافس بين الكتاب وادى هذا الى رقى الرسالة والافتنان فى القول ، ونهضت الرسائل السياسية والاخوانية نهضة عظيمة ، وطرقت الرسائل كل اغراض الحياة ، وتطورت السمات الفنية للرسائل مع تطور الحياة فى العصر العباسى .

وكانت مصر تابعة تبعية كاملة لبغداد طوال عصر الولاة الى ولاية احمد بن طولون سنة ٢٥٤ واول كاتب لديوان الرسائل فى مصر فى العصر العباسى القاضى خير بن نعيم الذى ولى ديوان الرسائل سنة ١٣٢ وكان يتولى منصب القضاء قبل ذلك ، وكان الولاة يتعاقبون على مصر واحدا تلو الآخر فلم يلق ديوان الرسائل مكانة تماثل المكانة التى لقيها بعد ولاية احمد بن طولون لمصر حيث صار لمصر مكانة بارزة وشخصية مستقلة تكاد تضارع مكانة بغداد ، وعظم شان ديوان الرسائل وارتفع شان الكتاب ، وانشا ابن طولون ديوانا سماه (ديوان التصفح) لمراجعة ما يكتبه كتاب ديوان الانشاء ، وممن اشتهروا بالبلاغة وحسن الكتابة ابو جعفر محمد ابن عبد كان كاتب احمد بن طولون ، وابن جدار ، ولقى ديوان الرسائل فى عهد الاخشيديين ما لقيه من عناية ورعاية فى عهد الطولونيين ، وبرز فى عهد الاخشيديين على بن محمد بن كلا وابراهيم النجيرمى .

وكان احمد بن طولون يراجع الرسائل بنفسه ويغير ما لا يرضى عنه ، وكان يضيف الى الرسائل بعض ما يراه بدون علم الكتاب ، وحدث ابن عبد كان قال : « كنا ننشىء الكتب الى السلطان وغيره من اصحاب اعماله فيرد في الأجوبة غير ما صدرت به الكتب اليهم ، فذكرت له ذلك لما كثر فضحك وقال : هذه اجوبة عن اشياء اضمنها انا الكتب لا اطلعكم عليها » .

وكانوا يكتبون فى أوراق البردى ، واستعملوا الجلود والقماش والورق والجرار وعظام الحيوان والخشب ، وانشىء اول معمل لصناعة الورق فى بغداد سنة ١٧٨ فى عهد الرشيد ، وكانوا يستعملون الحبر الأسود والأحمر واحيانا الأزرق والأخضر .

الرسائل السياسية

ازدهرت الرسائل السياسية فى العصر العباسى ، وكانت الرسائل السياسية تستحوذ على معظم الرسائل فى صدر الدولة العباسية نظرا للخلافات بين الاحزاب والادعاءات المتعارضة ، وكان الخلفاء انفسهم كتابا فصحاء وكانوا يصطفون امهر الكتاب ليتولوا رياسة دواوينهم ، وكان للرسائل اثر كبير فى مختلف الأحوال : فى اخذ البيعة للخلفاء أو ولاة العهود وفى نصح الولاة الثائرين أو تهديدهم وفى شئون الحرب واصلاح الرعية ، وفى تعيين القواد والولاة أو عزلهم وما الى ذلك ، وصار للرسائل تقاليد خاصة فى البدء والختام وفى الألقاب والدعاء ، وتباروا فى اختيار الالفاظ المناسبة .

ومن الرسائل المهمة فى صدر الدولة العباسية رسالتان متبادلتان بين ابى جعفر المنصور وابى مسلم الخراسانى ، وكان ابو مسلم قائد جيوش العباسيين وابلى بلاء حسنا فى القضاء على اعداء الخلافة الجديدة ، ولكن ابا جعفر المنصور تخوف من أبى مسلم حين رأى التفاف الشعب حوله فعزم على القضاء عليه ، وبعث احد رسله ليحصى ما فى

عسكر ابى مسلم ، فغضب ابو مسلم وشتم ابا جعفر ، وابلغ يقطين ذلك فكتب ابو جعفر الى ابى مسلم يستدعيه فرد ابو مسلم :

« لم يبق لأمير المؤمنين — اكرمه الله — عدو الا امكنه الله منه ؛ وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان ان اخوف ما يكون الوزراء اذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت، حريون بالسمع والطاعة غير انها من بعيد حيث تقارنها السلامة ، فان ارضاك ذاك كنت كأحسن عبيدك ، فان ابيت الا أن تعطى نفسك ارادتها نقضت ما ابرمت من عهدك ضنا بنفسى » .

ورد ابو جعفر على أبى مسلم بقوله : « قد فهمت كتابك ، وليس صفتك صفة اولئك الوزراء الغششة ملوكهم ، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فانما راحتهم فى انتشار نظام الجماعة ؛ فلم سويت نفسك بهم ؟. فانت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما انت عليه ؛ وليس مع الشريطة التى اوجبت سماع ولا طاعة ، وحمل اليك امير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن اليها ان اصغيت اليها ، واسأل الله ان يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك ، فانه لم يجد بابا يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طبه من الباب الذى فتحه عليك » .

وتكشف الرسالتان ان الكتاب فى تلك الفترة كانوا يقصدون الى اداء المعنى فى وضوح وبدون تأنق او محاولة لاظهار البراعة أو تجميل الاسلوب ، ونرى الجملة الاعتراضية الدعائية فى قول ابى مسلم (اكرمه الله) . كما تتضح فارسيته فى روايته عن ملوك آل ساسان ، ويتضح التأثر بالتعاليم الدينية فى الحديث عن الوفاء بالعهد وفى الحديث عن الشيطان ونزغاته وسؤاله الله أن يحول بين الشيطان وبينه .

فى مصر فى عهد الولاة

وفى مصر تبودلت الرسائل بين واليها والخليفة فى مختلف الشئون

السياسية ، ومن أوائل هذه الرسائل عند قيام الدولة العباسية ما ورد من ان عامر بن اسماعيل احد قادة العباسيين الذين طاردوا مروان بن محمد حتى قتل عند الفيوم . علم أن بنات مروان ونساءه لجئوا الى الكنيسة فدخل الكنيسة وقعد على فراشه وأكل من طعامه فلامته ابنة مروان ، وابلغ عامر الخليفة السفاح بذلك فكتب اليه السفاح :

« أما كان لك فى ادب الله ما يزجرك أن تقعد فى مثل تلك الساعة على مهاد مروان وتأكل من طعامه ، أما والله لولا أن أمير المؤمنين انزل ما فعلته على غير اعتقاد منك ولانهم على طعام لمسك من غضبه واليم ادبه ما يكون لك زاجرا ولغيرك واعظا ، فاذا أتاك كتاب أمير المؤمنين فتقرب الى الله بصدقة تطفىء بها غضبه ، وصلاة تظهر بها الخشوع والاستكانة له ، وصم ثلاثة أيام ، وتب الى الله من جميع ما يسخطه ، ومر جميع اصحابك أن يصوموا مثل صيامك » .

وظلت الرسائل فى النصف الأول من القرن الثالث على الحالة التى رأيناها فى القرن الثانى الهجرى ، واتسمت بالسمات نفسها ، ومالت بعض الرسائل الى الطول ، على حين جاءت بعض الرسائل موجزة لا تتجاوز السطرين ، ومن الرسائل التى مالت الى الطول رسالة كتبها احمد بن يوسف كاتب المأمون الى عبد الله بن طاهر والى مصر عندما استسلم له ابن السرى بعد ثورته على الخليفة المأمون ، وجاء فيها :

« بلغنى — أعز الله الأمير — ما فتح الله عليك وخروج ابن السرى اليك ، فالحمد لله الناصر لدينه ، المعز لدولة خليفته على عباده ، المذل لمن عند عنه وعن حقه ورغب عن طاعته ، ونسأل الله ان يظاهر له النعم ، والحمد لله على ما وليك به منذ ظعنت لوجهك ، فانا ومن قبلنا نتذاكر سيرتك فى حربك وسلمك ونكثر التعجب لما وفقت له من الشدة واللين فى موضعهما ولا نعلم سائس جند ورعية عدل بينهم عدلك ، ولا عفا بعد القدرة عمن آسفه واضغنه عفوك ، ولقل ما رأينا ابن شرف

لم يلق بيده متكلا على ما قدمت له ابوته ، ثم لا نعلم سائسا استحق النجح لحسن السيرة وكف معرة الأتباع استحقاقك .

فليهنك منة الله ومزيده ، ويسوغك الله هذه النعمة التى حواها لك بالمحافظة على ما به تمت لك من التمسك بحبل امامك ومولاك ومولى جميع المسلمين ، وملاك وايانا العيش ببقائه » واستمر الكاتب فى الحديث عن مكالة عبد الله والدعاء له .

ومن الرسائل الموجزة رسالة كتبها احمد بن يوسف الى عبد الله بن طاهر عن الخليفة المأمون بعزله عن ولاية مصر وتسليم العمل الى اسحاق ابن ابراهيم :

« اما بعد ، فان امير المؤمنين قد راى تولية اسحاق بن ابراهيم ما تتولاه من اعمال المعاون بديار مصر ، وانما هو عملك نقل منك اليك ، فسلم من يدك الى يدك » .

فى عهد الطولونيين والاخشيديين

وفى العصر العباسى الثانى قامت الدولة الطولونية بمصر على يد احمد بن طولون سنة ٢٥٤ هـ وصار لمصر شخصية مستقلة ، وبدات مصر تتبوأ مكانة عالية بين اقاليم الدولة العباسية وعظم شأن ديوان الرسائل فى مصر على يد كاتبه ابن عبد كان ، ثم استكتب ابن طولون جعفر بن عبد الغفار وهو من اصل مصرى ، وظهر فى هذا العصر كثير من الكتاب النابهين ، وكان ابن طولون يقرأ الرسائل بنفسه قبل ارسالها ويضيف اليها ما يرى ، واتسمت الرسائل فى هذا العهد بالسمات التى اتسمت بها الرسائل فى بغداد .

وحفظت كتب التراث مجموعة من الرسائل السياسية بعضها متبادل بين الخلافة وابن طولون ، أو بين ابن طولون وشخصيات بارزة فى الدولة العباسية ، وبعض هذه الرسائل داخلية تبودلت بين

ابن طولون وبعض رجالاته فى مصر فى حالتى الرضا والسخط ، واهم هذه الرسائل الداخلية رسالتان مطولتان بين احمد بن طولون وابنه العباس حيث تمرد العباس على ابيه ، وارسل ابن طولون الى ابنه العباس رسالة ينصحه فيها بالعودة الى الطاعة ويهدده اذا استمر فى تمرده ، وارسل العباس الى ابيه رسالة ينصحه فيها ويؤنبه ويبرر تمرده ، وتبع ذلك رسالة كتبها قائد جيوش احمد بن طولون يبشر الأمير فيها بالنصر وهزيمة جيوش العباس .

بين الموفق وابن طولون

وبلغت جيوش مصر من القوة درجة تحدى معها ابن طولون الموفق اخا الخليفة ، وصغر الموفق شأن ابن طولون فرد عليه ابن طولون بكتاب هدده فيه بالحرب وانذره بأن وراءه مائة ألف عنان كان قد اعدها لنصرة الخلافة وهو على استعداد لضرب من يعاديه بها ، وعير الموفق بانه لم يستطع هزيمة صاحب الزنج وليس وراءه الا رعاع البصرة فكيف يواجه جيش احمد بن طولون ، على انه أظهر الأمل فى أن يتراجع الموفق عن موقفه وأن تعود المصافاة بينهما ، والرسالة طويلة نوجزها فيما يلى : ـ

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصل كتاب الأمير ـ ايده الله ـ وفهمته ، وكان ـ اسعده الله ـ حقيقا بحسن التخير فى اختياره مثلى وتصييره اياى عمدته التى يعتمد عليها ، وسيفه الذى يصول به ، لانى دابت فى ذلك فاحتملت الكلف العظام والمؤن الثقال وكان من هذا سبيله فى الموالاة ومحله فى المناصحة حريا أن يعرف له حقه ويوفر من الاعظام قدره ، فعوملت بضد ذلك ، ولا يضطرنى الأمير الى ان اجعل ما قد اعددته لحياطة الدولة من الجيوش المتكاثفة والعساكر المتضاعفة مصروفة الى نقضها ، والأمير يعلم أن بازائه واحداً قد ابر عليه وفض كل جيش انهض اليه ، على انه لا ناصر له الا لفيف البصرة واوباش

اصالة رايه قصد لمائة الف عنان عدة له فجعلها عدة عليه بغير ما [illegible]

عامتها ، فكيف بمن يجد ركنا منيعا وناصرا مطيعا ؟. وما مثل الأمير فى اوجب ذلك ، فان يكن من الامير عتاب او رجوع الى ما هو اشبه به واولى ، والا رجوت من الله عز وجل كفاية أمره وحسم مادة شره » .

ويبدو من هذه الرسالة ان الأسلوب كان يهتم بالتنميق ولكنه لا يلتزم السجع ، ونرى الجملة الاعتراضية الدعائية : (ايده الله وأسعده الله) ويبدو هنا ثقة ابن طولون بنفسه وبجيشه حتى انه يتحدى أخا الخليفة ويسخر منه ، وكان الموفق قد أرسل جيوشا الى صاحب الزنج ولم تستطع هذه الجيوش القضاء عليه ، غير أن الموفق سحق جيش صاحب الزنج فى النهاية وقضى عليه وقتله .

بين ابن طولون والعباس

ومن ابرز الاحداث الداخلية فى عهد احمد بن طولون ثورة العباس ابن أحمد بن طولون على والده وقيام الحرب بينهما ، وقد تبودلت بينهما عدة رسائل ؛ وحاول أحمد بن طولون أن يستميل ابنه العباس بعد عصيانه فامر كاتبه احمد بن عبد كان أن يكتب عنه رسالة الى العباس بنصحه ويستميله ، وأعلن انه يفتح قلبه منتظراً عودة ابنه الى الطاعة ، والتجأ الى الله يستعديه على من وسوس الى ابنه فافسد دنياه ودينه ، واكد لابنه أن من وسوس اليه واحد من رجلين ، اما رجل ناقم واما رجل طامع ، ولكن هذه الرسالة لم تؤت ثمرتها .

وكتب ابن عبد كان رسالة ثانية الى العباس على لسان ابن طولون ، وجاءت الرسالة مطولة وافتن فيها ابن عبد كان واكثر من الترادف والاطناب وعنى بجمال الأسلوب وعنى بالتصوير لعله ينفذ الى قلب العباس ، وبدأ الرسالة بان اضفى الشرعية على ابن طولون ونسب العباس الى الخسران فى الدنيا والآخرة حيث يقول :

« من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين الى الظالم لنفسه العاصى

وبه الملم بذنبه المفسد لكسبه العادى لطوره الجاهل لقدره الناكص على عقبه المركوس فى فتنته ، المنحوس فى حظ دنياه وآخرته » . وترى هنا العناية بالاسلوب حيث تتوالى الجمل مؤكدة معنى واحدا وهو خروج العباس على اوامر الله ، ونرى هنا السجع والازدواج حيث تتوازن الجمل فى النغم الموسيقى ، ونرى الطباق فى دنياه وآخرته .

ويشبه العباس تشبيهات مبتكرة فيشبهه بالبقرة والنملة ، ويقتبس من القرآن الكريم حيث يعلن ان حالته تشبه حالة القرية التى تحدث الله عنها فيقول : « فان مثلك مثل البقرة تثير المدية بقرنيها ، والنملة يكون حتفها فى جناحيها ، وستعلم – هبلتك الهوابل – ايها الاحمق الجاهل اى موردة هلكة – باذن الله – توردت ، فانه تبارك وتعالى قد ضرب لك فى كتابه مثلا : (قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) » . ونرى هنا الجمل الاعتراضية : هبلتك الهوابل ، أيها الجاهل الاحمق ، وهما للدعاء على العباس . ونرى قوله : باذن الله ، وتهدف الى توقع الشر لابنه .

ثم يعلن تبرؤه منه واسقاط نسبته ويهدده بالحرب بلا هوادة ، ومن قوله : « والعساكر بحمد الله قد أتتك كالسيل فى الليل ، فانا نقسم الا نثنى عنك عناننا ، ولا نتوقل ذروة جبل ولا نلج بطن واد الا جعلناك بحول الله وقوته فيهما وطلبناك حيث أقمت منهما » . وتشبيه العساكر بالسيل يفيد الكثرة والقوة ، والليل يوحى بالرهبة ، وفى نهاية الرسالة يترك الباب مفتوحا يبقى على بصيص من الامل فى أن يعود الابن الى والده .

وكان بجانب العباس بعض القادة وعلى راسهم جعفر بن جدار : وكتب ابن جدار رسالة مطولة على لسان العباس موجهة الى احمد ابن طولون ، وبدأ الكاتب الرسالة بداية مهذبة حيث قدم المرسل اليه على المرسل ، ولكنه سرعان ما أورد آيات من القرآن الكريم تامر بعدم

اتباع من عصى الله ، يريد ان يبرر خروج العباس على والده ، يقول : «الى الأمير ابى العباس احمد بن طولون مولى امير المؤمنين ، من عبد الله ولى الله ، المتمسك بمناجى طاعة الله ، المنحرف عن زيغ ظلم المعصية الى وضوح سر البصيرة ، القابل من الله موعظته ، والعامل بما امر به اذ يقول : « ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه » .

ويتحدث عن وصول كتاب احمد بن طولون ، ثم يتهمه بالزيغ فيقول : « وبالله استعين على بلوغ طاعته ، واليه الرغبة ـ جل اسمه ـ فى استصلاحك وتحصينك من زيغ شيطانك » . ويتهم والده بالضعف فيقول له : « ان كان حبل امير المؤمنين قد اضطرب فى يدك فوهت قواه وانحل مبرمه وتداكت عساكره فى ذلك كما تداك الابل اللواقح على الحياض الطوافح » .

ويظهر العباس استهانة بتهديد ابيه ويخوفه بأن لديه جندا تتطامن لهامهم الليوث وتنهد الصم الصلاب ، يقول : « واما تخويفك ايها الامير اياى بخيلك ورجلك وعددك وعتادك فلو نظرت بعين النصفة ونطقت بلسان المعدلة لانفرج عن لبك رين الشبهة ، وانفتح من سمعك ما انسد بالشهوة ، وفى جوارى من يجيب صريخ الحق اذا استصرخته ، ثم لو كشف لك عن قناعه وحسر عن ذراعه لتطامنت لوطاته الليوث الغضاب ولتضعضعت لروعته الصم الصلاب » .

واخيرا يؤكد لابيه انه لن يعود الى موادته لان الله ينهى ان نواد من حاد عن الحق ، ونرى فى هذه الرسالة ما رايناه فى الرسالة السابقة من العناية بالأسلوب وبالتصوير والاقتباس من القرآن الكريم .

واشتعلت الحرب وهزم العباس واسر وارسل الى والده الذى امر بحبسه ، وكتب القائد رسالة الى ابن طولون يهنئه بالنصر وهزيمة الخارجين .

وبعد سقوط الدولة الطولونية باعوام قامت الدولة الاخشيدية على يد محمد بن طفج الاخشيد ، واحتفظت مصر بمكانتها العالية بين الاقاليم العربية ، واحتفظ ديوان الرسائل بمكانته السامية وظهر عديد من الكتاب ابرزهم ابراهيم بن عبد الله النجيرمى ، وفى عهد الاخشيد ارسل ارمانوس ملك الروم رسالة الى الاخشيد يعرض عليه المصافاة وتبادل الأسرى والفداء ، فكتب اليه النجيرمى رسالة مطولة على لسان الاخشيد حياه فيها واجابه الى ما طلب ورحب بسياسة المودة التى ابداها ملك الروم ، وذكر الهدايا التى حملها المصريون رسل ملك الروم تاكيدا لهذه المودة ، وفى ختام الرسالة يقول : « واما ما ابتدأتنا به من المواصلة واستشعرته لنا من المودة والمحبة فان عندنا من مقابلة ذلك ما توجبه السياسة التى تجمعنا على اختلاف المذاهب ، ورأينا من تحقيق جميل ظنك بنا ايناس رسلك وبسطهم والاستماع منهم ، وزدنا فى توكيد ما اعتمدته ما حملناه رسلك فى هذا الوقت — على استقلالنا اياه — من طرائف بلدنا وما يطرأ من البلاد علينا ، ونحن نفردك بما سلمناه الى رسولك لتقف عليه ان شاء الله .

ويتضح من الرسالة انها كانت مكتوبة باللغة الرومية وانها ترجمت الى اللغة العربية ، ويبدو فى الرسالة سعة أفق الكاتب وافتنانه فى القول ، وتدل الرسالة الى جانب ذلك على علو شأن الاخشيد حاكم مصر لأن ملك الروم كاتبه شخصيا ، وكان الملوك لا يكتبون الا الى نظرائهم من الملوك او الخلفاء .

فى القرن الرابع الهجرى

وفى القرن الرابع حدث تطور فى أسلوب الكتابة فمالت الرسائل الى الطول ولم يعد الكاتب يقصد الى الافهام فقط بل قصد الى اظهار المهارة والمقدرة الفنية ، فعمد الى تكرار المعنى الواحد فى جمل عديدة وتقليب المعنى على وجوهه ، ويحاول الكاتب ابراز المعنى الذى يهدف اليه عن طريق الـ‍ضـاد ، وغلب السجع والمحسنات البديعية على أسلوب

الكتاب حتى صار السجع مظهرا من مظاهر البراعة وصار شبه ملتزم في الكتابة ، واهتموا بالطباق والجناس والازدواج ، وكثر الاقتباس من القرآن وتضمين الشعر ، وبرز فى هذا القرن كثير من الكتاب النابهين مثل أبى بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمذانى وابن العميد وأبى اسحاق الصابى ، وصار لهؤلاء الكتاب مكانة كبيرة عند الحكام وعند عامة الشعب .

ومن الرسائل السياسية البارزة رسالة كتبها ابو الفضل ابن العميد وزير آل بوية ، فقد كتب الى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة ابن بويه ، وكانت رسالة مطولة مزج فيها الكاتب بين اللين والشدة والوعد والوعيد ، وفى مطلع الرسالة يقول :

« كتابى اليك وانا متارجح بين طمع فيك ويأس منك واقبال عليك واعراض عنك ، فانك تدل بسابق حرمة وتمت بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب حقا ورعاية ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية ، وادنى ذلك يحبط اعمالك ويسقط كل ما يرعى لك » .

وهنا يمجد الكاتب ماضى ابن بلكا ويعيب عليه مواقفه الأخيرة التى تخالف المعهود منه وتشوه صورته الناصعة ، وتتوارد الجمل هنا على معنى واحد ، ونرى السجع والجناس والطباق والموازنة ، ثم ينتقل الكاتب الى الموازنة بين حالة ابن بلكا أثناء الطاعة وحالته بعد المعصية ، ويبرز المعنى فى صور عديدة مؤثرة تبرز النعيم الذى نعم به فى ظل طاعة الرئيس ، ومن قوله :

« كيف وجدت مازلت عنه ؟ وكيف تجد ما صرت اليه ؟ الم تكن من الأولى فى ظل ظليل ونسيم عليل وريح بليل ، وهواء عدى وماء روى ومهاد وطى ، وكن كنين ومكان مكين فى حصن حصين ، يقيك المتالف ويؤمنك المخاوف ، ويكنفك من نوائب الزمان ويحفظك من طوارق الحدثان ؟ ، عززت به بعد الذلة ، وكثرت بعد القلة ، وارتفعت بعد

الضعة ، وأيسرت بعد العسرة ، واثريت بعد المتربة ، واتسعت بعد الضيقة ، وظفرت بالولايات وخفقت فوقك الرايات » .

ولتضح هنا السمات التى تحدثنا عنها ، وتنصب العبارة كلها حول الحديث عن نعيم الطاعة وما جلبت له من سعادة بعد شقاء ، وتتوالى هنا الاستفهامات لتقرير نعيم الطاعة وما جلبت له من سعادة بعد الشقاء ، وكان الكتاب يكتبون عن الرؤساء ويتحدثون باسم الخلفاء او الرؤساء ، وفى أحيان قليلة كان الرئيس يكتب بيده اذا كان الأمر فى غاية الأهمية .

الرسائل الاخوانية

الرسائل الاخوانية التى يتبادلها الاخوان فيما بينهم فى الشئون المتعلقة بهم من تهنئة وتعزية وعتاب وشكر ونصح واستعطاف وشفاعة وتوصية وما الى ذلك .

وفى بادىء الأمر كان الاهتمام بالرسائل السياسية يطغى على الاهتمام بالرسائل الاخوانية ، ثم زاد الاهتمام بالرسائل الاخوانية شيئا فشيئا ، وحفظت كتب التراث كثيرا من هذه الرسائل تناولت كل شئون الحياة الاجتماعية حتى صار النثر يزاحم الشعر فى هذه المجالات ، واتسم أسلوب الرسائل الاجتماعية بالسمات التى اتسم بها اسلوب الرسائل السياسية ، ففى القرن الثانى الهجرى كان الكتاب ينطلقون على سجيتهم ويهدفون الى التعبير عن المعانى التى يقصدونها بأسلوب يفصح عن المراد ، ولم يكونوا يعمدون الى الزينة اللفظية ويتكلفون السجع والمحسنات البديعية .

رسالة ابن سيابة الى يحيى البرمكى

ولكنا نجد فى احيان قليلة رسائل تلتزم السجع وتعنى بالموازنة وبالطباق والجناس وتهتم بالتصوير ، وتتوافر كل هذه السمات فى الرسالة التى كتبها ابن سيابة الى يحيى بن خالد البرمكى ، اى انها

كانت فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى ، وقد حفظها الجاحظ فى كتابه (البيان والتبيين) وقال : « ان عامة اهل بغداد كانوا يحفظونها » . واعتقد أن التزامها السجع ومراعاة الموازنة بين الجمل هو الذى دفع الناس الى حفظها ، لأن هذا لم يكن شيئا مألوفا فى تلك الفترة ، فكان شيئا جديدا على الاسماع فطرق الأسماع وعلق بالقلوب، ونص هذه الرسالة :

« للأصيد الجواد ، الوارى الزناد ، الماجد الأجداد ، الوزير الفاضل ، الاشم البازل ، اللباب الحلاحل ، من المستكين المستجير ، البائس الضرير ، فانى احمد الله ذا العزة القدير ، اليك والى الصغير والكبير ، بالرحمة العامة والبركة التامة ، أما بعد ، فاغنم واسلم ، واعلم انه من يرحم يرحم ، ومن يحرم يحرم ، ومن يحسن يغنم ، ومن يصنع المعروف لا يعدم ، وقد سبق الى تغضبك على واطراحك لى وغفلتك عنى بما لا اقوم له ولا أقعد ، ولا أنتبه ولا ارقد ، فلست بحى صحيح ، ولا بميت مستريح ، فررت بعد الله منك اليك ، وتحملت بك عليك ، ولذلك قلت :

اسرعت بى حثا اليك خطائى　　فاناخت بمذهب ذى رجاء
راغب راهب اليك يرجى　　منك عفواً عنه وفضل عطاء
ولعمرى ما من اصر ومن نا　　ب مقرا من ذنبه بسواء

فان رايت أراك الله ما تحب وابقاك فى خير — الا تزهد فيما ترى من تضرعى وتخشعى وتذللى وتخضعى فان ذلك ليس منى بنحيزة ولا طبيعة ، ولا على وجه تصنع ولا تخدع ، ولكنه تذلل وتخشع ، وتضرع من غير ضارع ولا مهين ، ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك الا لمن التضرع له عز ورفعة وشرف » .

وتدل الرسالة على أن يحيى البرمكى كان قد غضب على ابن سيابة ، فهى رسالة فى الاستعطاف ، وتتضح فيها السمات التى أشرنا اليها ، ثم انه يضمن الرسالة أبياتا من الشعر .

وفى القرن الثالث بدأ الكتـاب يهتمون بجمال الأسـلوب وان لم يلتزموا السجع التزاما كاملا ، وفى أواخر العصر العباسى الأول تطالعنا رسـالة الحسن بن وهب الى الوزير ابن الزيات يشكره لنعمة أسـداها اليه ، ويبدو فى الرسالة الاهتمام بتنميق الأسـلوب ، كما تبـدو فيها المبالغة فى تعظيم النعمة وعجز الكاتب عن التعبير عن الشكر ، وجاء فى هـذه الرسالة :

« من شـكرك على درجـة رفعته اليها او ثروة افدته اياها ، فان شكرى لك على مهجة احييتها وحشـاشة ابقيتها ، ورمق أمسـكت به وقمت بين التلف وبينه فلكل نعمة من نعم الدنيـا حد ينتهى اليه ومدى يوقف عنده وغاية من الشكر يسمو اليها الطرف ، خلا هذه النعمة التى قد فاقت الوصف وطالت على الشكر وتجاوزت كل قدر ، وانت من وراء كل غاية رددت عناكيد العدو ، وارغمت انف الحسـود ، ونحن نلجأ منك الى ظل ظليل وكنف كريم ، فكيف يشـكر الشـاكر ؟ وانى يبلغ جهـد المجتهد ؟ » .

رسالة ابى على البصير فى العتاب

وجاءت بعض الرسـائل فى العتاب ، وقد يخرج العتاب الى الهجاء ، ويبدو فى هذا الهجاء التعمق والافتنان والشـمول فى القول ، وقد كتب ابو على البصير رسـالة الى ابى العيناء منافسـه فى منادمة الخلفـاء والوزراء سـلبه فيها من كل المزايا ، والصـق به كل المثالب الخلقـة والخلقية ، ورسم له صورة منفردة ، ومما جاء فى هذه الرسالة :

« من ابى على البصير ذى البرهان المنير المبلغ فى التحذير المعـذر فى النكير ، الى ابى العينـاء الضرير ، ذى الرأى القصـير والخطـل الكثير والاقدام بالتعبير ، سـلام على المخصـوصين بالسـلام ، المؤمنين بالحلال والحرام والفرائض والاحكام ، فانى احمد الله الى نفسـه واوليائه

من خلقه ، اما بعد ، فانك الرجل الدقيـق حسـبه الردىء مذهبـه ، الدنىء مكسـبه الخسيس مطلبه ، البذىء لسـانه المبتلى من اخوانه ، قد صيرت القحة جنـة وشتم الأعراض سـنة ، صديقك على وجل منك ؛ ان شـاهدته عافك ، وان غبت عنه خافك ، تسـاله نوق الطاقة وترهقه عند الفاقة ، فان اعتذر اليك لم تعذره ، وان استنظرك لم تنظره ، وان انعم عليك لم تشكره ، لا تزيدك السـن الا نقصـا ، ولا يفيـدك الغنى الا حرصـا ، وتعرض للناس بالسـؤال غير محتشـم من الاملال ، من اطاعك فى ماله حربته ، ومن منعك بعذر واضح سـببته ، ومن اكرمك اهنته وتطاولت عليـه ، ومن اهانك اسكنت له ولنت فى يديه ، ارئك عن ابيك السعاية ونقل الاخبار والوشاية » .

وهنا دقة فى اختيار الالفاظ وشـمول فى الوصـف والسـلب ، وقد طعن عليه فى اخلاقه واستعان بالطبـاق والمقابلة على ابراز دناءته حيث يقابل الاحسان بالاسـاءة ، والتزم الكاتب السجع لان خصـمه كان يعجب بالسـجع فاراد أن يرى ابا العيناء ان خصمه قادر على الاسلوب المسـجوع ، ولم يكن السـجع ملتزما عند كتاب القرن الثالث الهجرى .

فى مصر

وفى مصر كثرت الرسـائل الاخوانيـة منذ عهد الدولة الطولونيـة حين اسـتقرت احوال مصر واهتم الكتـاب بالرسـائل الاخوانوية وافتنوا فيها ، وطرقت الرسـائل مختلف الاغراض ، واورد القلقشـندى فى كتـابه (صبح الاعشى) اجزاء من رسـائل لابن عبد كان تزيد على ثلاثين رسـالة فى التوـيد والتشـوق والشكر والتهنئة والوداع والعتـاب وفى المسـايدات ، وتتراوح هـذه الرسـائل بين الطول والقصر ومن الرسـائل القصـيرة رسـالة كتبها ابن عبد كان الى مسـافر يدعـو له برعاية الله وبلوغ الامل : « جعلك الله فى حفظه وفى كنفه ، واحاطك بحيطته ، وجعل سـفرك ايمن سـفر عليك ، ورجـع لك بدرك الحاجة وبلوغ الامل ونجح الطلبـة ونيل السـؤل » .

ومن الاحداث البارزه فى ايام الدولة الطولونية زواج الخليفة المعتضد بقطر النـدى ابنة خمارويه بن احمد بن طولون ، وتكشف احدى الرسائل المتبادلة عن مبلغ اهتمام الكتاب باختيـار الفاظهم ، وتكشف عن ان الكتاب كانوا يتنافسـون فى الكتـابة وانهم كانوا نقـادا يتذوقون العبـارات ويهتدون الى مواطن الضعف والقوة فيها ، ويصـور ذلك ما ورد انه :

« لـما حملت قطر الندى بنته خمارويه الى المعتضـد كتب معها ابوهـا اليه يسـال ايناسـها وبسـطها ، فبلغت من قلب المعتضـد لـما زفت اليه مبلغا عظيما ، وسربها غاية السرور ، فامر الوزير ابا القاسـم عبيد الله بالجـواب عن الكتـاب ، فسأله ابو الحسين بن ثوابة ان يؤثره بذلك ، ففعل ، وغاب اياما واتى بنسـخة يقول فى فصل منها : « واما الوديعـة فهى بمنزلة شىء انتقل من يمينك الى شـمالك عناية بها وحياطة عليهـا ورعاية لمودتك فيها » ، فقال عبيد الله : « ما اقبح هـذا ، تفاءلت لامراة زفت الى صاحبها بالوديعـة ، والوديعة مستردة ، وقولك : من يمينك الى شـمالك اقبح ، لانك جعلت اباهـا اليمين وامير المؤمنين الشمال ، ولو قلت : « واما الهدية فقد حسن موقعها منا وجل خطرها عندنا ، وهى وان بعـدت عنك بمنزلة من قرب منك ، لتفقدنا لها ونبسـنا بها ولسرورها بما وردت عليه واغتباطها بما صارت اليه ، لكان احسـن فتفقد الكتـاب » .

رسـالة شـعرية

وجاءت بعض الرسـائل شـعرا خالصـا ، وجاء فى معجم الادباء ان ابن جـدار كتب الى صـديق له :

يا كسـرويا فى القـديم
وهاشـميا فى الـولاء
يا ابن المقفـع فى البيا
ن ويا اياسـا فى الذكاء
يا ناظـرا فى المشـكلا
ت المعضـلات ويا ضـيائى

ايهمـا جعلت فـداك فيـم
طويتني طـي الـرداء ؟
وتركتني بين الحجـاب
أعـوم في بحر الجفـاء
ورغبت عمـا كنت تر
غب فيـه من لطف الاخاء
من بعـد أني كنك عبـد
ك وابن أمك بالسـواء
فوحـق كفـك انهـا
كف كاخـلاف السـماء
لأخلينـك والهـوى
ولأصـبرن على اللقـاء
ولأشـكونك ما اسـتطعت
الى حفـاظك والوفـاء
ولأصـبرن على رقيـك
فـي ذرادرج العـلاء
فهنـاك أجني ما غرسـت
اليـك من ثمـر الرجـاء

وواضـح أنها رسـالة فى العتاب والتشـوق ، وانها كتبت الى احد كبـار رجال الدولة ، وأنه أحـد عمـال الأمير أو القضـاة البارزين ، فالكاتب يتحدث عن حجبه عن الدخول اليه ، وقـد وصـف الكاتب صديقه بالفصاحة والذكاء وشـبهه بابن المقفـع واياس ، وتبدو ثقافة الشـاعر فى حديثه عن كسرى وعن الولاء وعن ابن المقفع واياس ، والصـورة عنده مسـتمدة من القـديم كما نرى فى طى الرداء وتشبيه السـماء بالناقة والرمز لها بالأخـلاف .

فى القرن الرابـع

وفى القرن الرابع اتسمت الرسائل الاخوانية بالسمات التى اتسمت بها الرســائل السياسية فمالت الى الطول ، وكان الكتـاب يهدفون الى اظهـار البراعة والقـدرة الفنية ، والتزم الكتاب السـجع واكثروا من المحسنات البديعة حيث صـار هـذا الاسلوب دليل المهارة والتفوق ، وتعـددت الاغراض التى طرقها الكتـاب حتى ان ابا بكر الخوارزمى كتب رسـالة الى صديق له شكا الجرب وكان ابا بكر طبيب يصف الدواء لمريض ، وكان ابو بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمـذانى فرسى رهـان لا يكاد ان ياتيان بجملتين تخلوان من السـجع ، ونورد هنا جزءا من رسالة كتبها بديع الزمان الى وارث مال يوصيه بالحرص على المـال وعدم انفاقه فى المتعة والشراب ، ويحذره من الانخـداع بكلام الناس ، ويبدو فى هذه الوصية افتنان بديع الزمان وتلاعبه بالالفاظ وولعه بالسجع والطبـاق والجناس ، وجاء فى هـذه الرسالة :

« العزاء من الاعزة رشـد كانه الغى ، وقد مات الميت فليحى الحى ، واشـدد على مالك يالخمس فانت اليوم غيرك بالامس ، كان ذلك الشيح وكيلك يضحك ويبكى لك ، وسيعجم الشيطان الآن عودك ، فان استنالك رماك بقوم يقولون : خير المـال متلفه بين الشراب والشباب ، ومنفقه بين الحباب والاحبـاب ، والعيش بين القداح والاقداح ، ولولا الاستعمال ما اريد المـال ، فان اطعتهم فاليوم فى الشرب ، وغدا فى الخـراب ، واليوم واطربا للناس ، وغدا واحربا من الافلاس » .

وكانت الرسائل تبدا بالبسملة ، وتختم فى معظم الاحيان بعبـارة (والسـلام عليكم ورحمة الله) او (والسلام) ، وجاءت بعض الرسائل بغير هـذه الخواتيم المعروفة فختم بعضـها بالحـديث عن الغرض من الرسـالة ، وكانوا يكتبون بعد السـلام اسم الكاتب وتاريخ الرسالة .

من الطبيعى ان توجد الوصايا فى كل ادب وفى كل عصر ، فالآباء يوصون ابناءهم ، والرؤســـاء يوصون رعيتهم ، والعلماء يوصون الحكام ويوصون عامة الشعب ، وقـد وجدت الوصايا فى الادب العربى منذ الجاهلية ، ومن اشهر هذه الوصايا وصـية امامة بنت الحارث لابنتها عند زفافهـا وهى وصية شـاملة تدل على عقلية متفتحة وخلق رفيـع .

وجاء الاســلام وشمل القرآن الكريم والاحاديث النبوية كثيراً من الوصايا ، واتبع الخلفاء الراشـدون هذا المنهج واوصوا رعيتهم وولاتهم وقادتهم وصايا دينية وسياسـية ، كما أوصى الامويون ابناءهم وقادتهم وزقيتهم ، وكانت معظم هذه الوصـايا تهدف الى المحافظة على الخلافة الاموية والتنبيه للاخطار التى تحـدق بها .

فى العصر العباسى

فى العصر العباسى كثرت الوصـايا وتنوعت وتعددت اهدافها ، فكان الخلفاء يوصون ابناءهم ويعدونهم لتولى المهـام الخطيرة ، وكانوا يوصون الشعوب بتقوى الله والسـمع والطاعة ، وكذلك فعل رجـال الدولة ، وكذلك فعل الشـيعة الذين كانوا يطمعون فى الخلافة ويعدون ابنـاءهم لها ، وواكبت الوصـايا كثيرا من الاحـداث السـياسـية والاجتماعية ، وكانت هـذه الوصـايا ترتبط بصورة ما بالوصـايا الدينية ، وسنتحدث اولا عن الوصـايا السياسية ثم نثنى بالحديث عن الوصايا الاجتماعية .

الوصـايا السياسـية
فى مطلع الدولة العباسـية

اعـد العباسيون لتولى الخـلافة والاطاحة بالدولة الاموية ، واختار محمد بن على العباسى رجال الدعوة واوصاهم وحدد لهم مناطق نشاطهم ، ومما أوصــاهم به قوله : « أما الكوفة وسـوادها فهنـاك شـيعة على ابن أبى طالب ، واما البصرة فعثمانية تدين بالكف وتقول : كن عبد الله

المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ، واما الجزيرة فحرورية مارقة ، واما أهل الشـــام فليس يعرفون الا آل ابى ســفيان وطاعة بنى مروان ، عــداوة لنا راســخة وجهلا متراكما ، واما اهــل مكة والمدينة فقــد غلب عليهما ابو بكر وعمر ، ولكن عليكم بخراســان فان هناك العــدد الكثير والجلــد الظاهر وصــدورا سليمة وقلوبا فارغة لم تتقسمها الأهواء ، وليست لهم اليوم همم العرب ، ولم يزالوا يمتهنون ويظلمون ويكظمون ويتمنون الفرج، وهم جند لهم أجســام ومناكب وهامات واصــوات هائلة ، وبعد فكانى أنظر الى المشرق والى مطلع سراج الدنيــا » .

والعباسيون هنا يتطلعون الى خراســان ، وقــد علل محمد العباسى لرايه تعليــلا صادقا ، وقــد تحققت تطلعاته وقامت الدولة العباســية على أكتاف الفرس ، وصار الفرس فى الدولة الجديدة مكانة سامية وتولوا ارقى المناصــب .

ونظر العلويون فوجــدوا الخــلافة قــد افلتت من أيديهم فثــاروا على ابنــاء عمومتهم من العباسيين واشــتد العباسيون فى معاملة العلويين والقوا بهم فى غياهب الســجون وقبض ابو مسلم الخراسانى قائد جيوش العباسيين على عبد الله بن معــاوية بن جعفر ابن ابى طالب وســجنه ، وكتب عبد الله الى ابى مســلم يوصيه بالعــدل وتقوى الله ، ومما جاء فى هــذه الوصية : « من الاســير فى يديه بلا ذنب اليه ولا خلاف عليه، اما بعــد ، فآتاك الله حفظ الوصــية ومنحك نصيحة الرعية ، والهمك عــدل القضية ، نبه للتفكير قلبك ، واتق ربك ، واعط من نفســك لمن هو تحتك ما تجب ان يعطيه من هو فوقك ، من العــدل والرأفة والأمن من المخــافة ، فان علينا من ســمك الحديد وثقله اذى شــديداً مع معالجة الاغلال وقلة رحمة العمال، فاليك بعــد الله نرفع كربة الشــكوى ، ونشكو شــدة البلوى ، فارع حرمة من ادركت بحرمته ، واعرف حجة من فلحت بحجته ، والله المســتعان وعليه التكلان ، الناس من دولتك فى رخاء ونحن

منها فى بلاء ، ررقنا الله منك التعطف وظاهر علينا فك النمنى ، والسلام ورحمة الله »

والموصى هنا يشكو ما يلاقيه فى سجنه ، ويدعو لأبى مسلم بان يلهمه الله العدل ، ويذكره بمسئوليته تجاه الرعية ، ثم يطلب اليه ان ينظر الى نفسه ويتخذ منها مثلا ، ويضرب على وتر حساس فيذكره بانه نجح فى دعوته بحرمة اهل البيت فكيف ينقلب عليهم ؟ . وجاءت هذه الوصية ملتزمة السجع مع أنها كتبت فى منتصف القرن الثانى الهجرى ولم يكن الكتاب يلتزمون السجع فى ذلك الوقت ، ويبدو أن الكاتب حرص على جمال الأسلوب ليكون اشد تأثيرا فى نفس ابى مسلم ، والفرس يحبون الزخرف فى كل شىء .

ولم يوصى خليفة كما اوصى ابو جعفر المنصور ، وكان شجاعا مدبرا ، وكان حازما قاسيا وكان حريصا على المال مقدرا أثره فى استتباب الدولة ، ونفذ ببصيرته الى كل جوانب الدولة واوصى بما يحسن أن يوصى به ، واوصى بالخلافة من بعده لابنه محمد المهدى واوصاه وصايا عديدة بتقوى الله والاحتياط ومجالسة العلماء ، وحذره ممن يخشى تمردهم ، ومن وصاياه للمهدى قوله : « وانظر هذه المدينة (بغداد) فاياك أن تستبدل بها فانها بيتك وعزك ، فقد جمعت لك فيها من الأموال ما ان كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور ، فاحتفظ بها فانك لا تزال عزيزا ما دام بيت مالك عامرا ، واوصيك باهل بيتك أن تظهر كرامتهم وتقدمهم وتعظم امرهم وتوليهم المنابر ، فان عزك عزهم ، واوصيك باهل خراسان خيرا فانهم انصارك وشيعتك الذين بذلوا اموالهم فى دولتك ودماءهم دونك ، أن تحسن أليهم وتتجاوز عن مسيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم وتخلف من مات فى أهله وولده » . وقد افاد المهدى من هذه الوصايا .

من الطبيعى ان يكون الابن موضع اهتمام الاب وان يخص الأب ابنه بالوصايا ، وقد اوصى الخليفة المهدى ابنه موسى الهادى بتقوى الله والاهتمام باهل خراسان وبعامة الناس ، ومن ابرز ما اهتدى اليه اعطاء كل بلد حق اختيار حاكمه ، فان احسن حمد الخليفة وان اساء ناساءته عليه ، فالمهدى يفطن الى حق الانتخاب للشعب وان اختلفت طريقة الانتخاب فى كل عصر ، ومن وصية المهدى فى ذلك لابنه : « اى بنى ، عليك العامة فاستدع رضاها بالعدل [illegible] ، واستجلب مودتها بالانصاف لها ، واجعل عمال القدر (ذوى الشرف) وولاة الحجج مقدمة بين يدى عملك ، ونصفه منك لرعيتك ، وذلك ان تامر قاضى كل بلد وخيار اهل كل مصر ان يختاروا لانفسهم رجلا توليه امرهم وتجعل العدل حاكما بينه وبينهم ، فان احسن حمدت ، وان اساء عذرت » .

ثم يوصيه بالحرص على اختيار رجلين بلازمان احدهما كريم الخلق شريف الحسب راجح العقل ظاهر التقوى ، والثانى بصير بالامور فصيح اللسان محنك فى الحروب ، وقد اصاب المهدى ، فالاول يظهر الخليفة بمظهر التقى الحريص على ملازمة ذى التقوى ، والثانى يحسن تصريف الامور ، ويدفع بالحجة ويناصر فى الحرب ، ومن قول المهدى فى ذلك : « لا ينفكن فى ظل كرامتك نازلا ، وبعرا حبلك متعلقا رجلان : احدهما كريمة من كرائم رجالات العرب واعلام بيوتات الشرف ، وله ادب فاضل وحلم راجح ودين صحيح والآخر له دين غير مغموز ، وموضع غير مدخول ، بصير بتقليب الكلام وتصريف الرأى ، عالم بحالات الحرب وتصاريف الخطوب فتستشيره فى حربك وتدخله فى امرك » .

وكان المعهود ان يوصى الخليفة لابنه ويكتب عهدا بذلك ، ولكن هارون الرشيد غير صورة الوصية حين اراد ان يوصى لولديه الأمين ثم المأمون،

وقد صحب ابنيه الى مكة وكتب الوصيتين فى المسجد الحرام ليضفى عليهما قدسية ، وكتب الوصيتين على لسان الامين المأمون ، ويبدو من هاتين الوصيتين ان الرشيد كان يخاف بل ويتوقع أن ينقض الأمين العهد فاخذ على الامين عهوداً موثقة .

كتب الرشيد الوصية الاولى على لسان الامين ، وجاء فى مطلع هذا الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب لعبد الله هارون أمير المؤمنين كتبه محمد بن هارون امير المؤمنين فى صحة من عقله وجواز من امره ، ان أمير المؤمنين ولانى العهد من بعده ، وولى عبد الله بن هارون العهد والخلافة وجميع امور المسلمين بعدى ، وولاه خراسان وثغورها فى حياته وبعده ، فان حدث بامير المؤمنين حدث الموت واقضت الخلافة الى محمد بن امير المؤمنين فعلى محمد انفاذ ما امره به هارون امير المؤمنين فى توليه عبد الله بن هارون أمير المؤمنين خراسان وثغورها فان اراد محمد خلع عبد الله من ولاية العهد من بعده او عزل عبد الله عن ولاية خراسان فلعبد الله بن هارون الخلافة بعد أمير المؤمنين ، وهو المقدم على محمد »

وقد ولى الرشيد المأمون خراسان فى حياة محمد حتى يجد المأمون قوة يستند اليها ان أراد الامين خلع أخيه والاستقلال بالسلطة كلها ، وفى نهاية الوصية يطلب من الناس انفاذ ما أمر به امير المؤمنين .

وكتب الرشيد وصية اخرى باسم المأمون نص فيها على ما سبق ذكره ، وجاء فى هذه الوصية على لسان المأمون أن يفى لاخيه محمد بالسمع والطاعة ، فان نقض العهد فهو برىء من الاسلام ، واشهد الرشيد على هاتين الوصيتين .

وكان الرشيد جاء العاطفة فى حالتى الرضا والسخط ، وعرف وزراؤه عنه هذه الصفة فكانوا يوصون بالحذر فى معاملة السلطان . يقول يحيى بن خالد البرمكى : « اذا صحبت السلطان فدازه مدارة المرأة

العاقلة لصحبة الزوج الاحمق » ، وأوصى الفضل بن الربيع فقال : « اياكم ومخاطبة الملوك بكل ما تقتضى جوابا ، لانهم ان اجابوكم اشتد عليهم ، وان لم يجيبوكم اشتد عليكم » .

فى القرن الثالث

سارت الوصايا فى القرن الثالث الهجرى على النمط الذى سارت عليه فى القرن الثانى ، فكان الموصى يقصد الى اداء المعنى فى عبارة واضحة تهدف الى الافهام قبل كل شىء ، وغلب الترسل على اسلوب الوصية كما غلب على الأسلوب المساواة وقليلا ما تاتى الوصايا موغلة فى الايجاز او الاطناب .

ومن أبرز الوصايا فى القرن الثالث الهجرى وصية الخليفة المأمون لعلى بن موسى الرضا ، وكان المامون متشيعا لعلى بن ابى طالب فاختار على بن موسى الرضا زعيم العلويين فى ذلك الوقت وكتب له وصية بالخلافة بعد موت المامون .

ونوجز هنا وصية المامون ، وفى مطلع الوصية يعلن المامون انه كتب الوصية بيده دلالة على شدة اهتمامه بهذا الأمر ، يقول المامون : « هذا كتاب كتبه عبد الله بن هارون الرشيد أمير المؤمنين بيده لعلى بن موسى ولى عهده » .

ثم يتحدث عن الاسلام واصطفاء الله نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ، ثم قيام الخلافة وضرورة طاعة الخلفاء لله ، وطاعة الناس الخلفاء .

ثم ينتقل الى غرضه الأساسى فيتحدث عن ولاية العهد وان مسالة الامامة من تمام أمر الاسلام ، وانه اجتهد غاية الاجتهاد ونظر فى آل العباس وآل على بن ابى طالب فلم يجد احق بالخلافة بعد المامون من على بن موسى الرضا ، ومن قوله : « فكانت خيرته بعد استخارته لله

على بن موسى الرضا لما رأى من فضله البارع وعلمه الناصع وورعه الظاهر ، فعقد له بالعقد والخلافة ايثارا لله والدين ونظرا للمسلمين » .

ثم يعلن المأمون أن ولده وأهل بيته بايعوا ، ويدعو الجميع الى هذه البيعة فيقول : « ودعا امير المؤمنين ولده واهل بيته وخاصته وقواده وخدمه فبايعوا ، فبايعوا معشر بيت امير المؤمنين ومن بالمدينة المحروسة وعامة المسلمين الرضا على اسم الله وبركاته ، شاكرين لله ما ألهم امير المؤمنين ، راجين عائده فى ذلك فى جمع الفتكم وحقن دمائكم واستقامة اموركم ، فانه الأمر أن سارعتم اليه وحمدتم الله عليه عرفتم الحظ فيه ان شاء الله تعالى » واشهد المأمون على هذه الوصية

فى القرن الرابع الهجرى

فى القرن الرابع تسلط الحكام وكثر الظلم والمصادرات والقبض على الوزراء ، ولذلك نرى كثيرا من الوصايا السياسية تدور حول مداراة السلطان أو تجنبه او الصبر على أذاه ، وظفر هذا القرن بكبار الكتاب من امثال ابن العميد وابى بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمذانى والصاحب بن عباد وأبى أسحاق الصابى ، وعظم نفوذ هؤلاء الكتاب واطمأن اليهم الخلفاء والرؤساء ، وصاروا يكتبون الرسائل باسم الخلفاء والرؤساء فى مختلف المناسبات ، وجاءت معظم هذه الرسائل مطولة تعالج المسائل السياسية فتواسى المنكوب او تؤنبه : او تحث الثائر على العودة الى الطاعة ، أو مداراة السلطان والصبر على أذاة ، وكثيرا ما تجمع بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة لامير المؤمنين ، وربما كتب الخليفة الرسالة بنفسه يوصى فيها أحد الولاة بلزوم الطاعة كما نرى فى رسالة كتبها الخليفة القائم الى الإخشيد حاكم مصر يوصيه بالطاعة والبعد عمن يسولون له العصيان .

وقد تصدر الوصية من أب لابنه فى أمر خاص لا يتعلق بأمور الدولة .

ومن ذلك وصية ابي الهيجاء الحمداني لابنه ناصر الدولة وجاء في هذه الوصية : « اذا رايت السلطان قد رفع من اهلك رجلا ، او الزمان قد نوه به فاياك ان تحسده او تشغل نفسك بعداوته فانك تتعب ولا تصل الى فائدة ، وتسقط انت ولا تضره هو ، وتغض من نفسك بغضك من رجل صار كبيرا من اهلك ، واجتهد ان تخدمه وتصافيه الود وتصير احد اعوانه ، فان كان لك منزلة من السلطان جاز ان تصل اليها باستخلافه اياك عليها وانتقاله الى ما هو اكبر منها ؛ وان كانت منزلته من غير سلطان فلا تقل : انا اقعد منه في النسب وهذا امس كان دوننا ، فان للناس باوقاتهم » .

وكان كتاب الديوان يلجئون الى اظهار المهارة اللغوية ويكررون المعنى الواحد في جمل متعددة ويقلبون المعاني على وجوهها ، والتزموا السجع واكثروا من المحسنات البديعية ، ونرى ذلك في الوصية التي بعث بها ابو بكر الخوارزمي الى وزير خوارزمشاه لما نكب ، ونصح الخوارزمي الوزير ان يلبس ثوب الصبر ولا يجزع ، واوصاه ان يداري السلطان فيصغر اساءته ويكبر احسانه ويروض لسانه على شكره ، ومن قول الخوارزمي : « فاما الآن فاني ارى للشيخ ان يلبس الدهر ثوبا من الصبر تحينا ، ويولي حوادثه ركنا من التماسك ركينا ، وان تجده الايام حرا ، وان تضنيه الحوادث اذا ذاقته مرا ، وان يداري مع ذلك سلطانه ويصغر بلسانه اساءته ويكبر احسانه ، ويروض لسانه في الخلوة على شكره لئلا يجمع به في الجلوة الى غيره ، ومن طالب السلطان بالنصفة طلب غير الحق ، ومن حاسب على قليل من العنف لقي كثيرا » .

الوصايا الاجتماعية

شملت الوصايا الاجتماعية مختلف النواحي الاجتماعية ، فالآباء يوصون ، وولاة الامور يوصون ، وكذلك العلماء ، وهناك وصايا علمية وادبية توصي بطلب العلم وحفظ الشعر ، او تدور حول نصيحة الكتاب والشعراء بالتزام مبادىء فنية معينة كالايجاز او توصي بالكتابة حين

يصفو الذهن ، وهناك وصايا بلاغية بتجنب وحشي الكلام ومراعاة مقتضى الحال ، وتناولت الوصايا آداب الحديث والاستماع وحقوق الصداقة ، وكتب ابن المقفع كتابيه (الادب الصغير والادب الكبير وشملا وصايا بعضها مترجم وبعضها من وضع ابن المقفع ، وهناك وصايا شاذة كوصايا البخلاء والمتطفلين والمكدين .

في صدر الدولة العباسية

برز ابن المقفع في صدر الدولة العباسية وكان عاقلا حكيما ، وله كثير من الوصايا العامة والخاصة ، وقد عمل ابن المقفع في الدواوين واقترب من الحكام وخبرهم ، وادرك خطورة معاشرتهم ، واوصى كل من خدم السلطان بالحذر ورياضة النفس على الطاعة ، ومن قوله في ذلك : « لا تكن صحبتك للسلطان الا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم ، فان كنت حافظا اذا ولوك ، حذرا اذا قربوك ، امينا اذا ائتمنوك ، ذليلا إذا صرموك ، راضيا اذا اسخطوك ، تعلمهم وكانك تتعلم منهم ، وتؤدبهم وكانك تتادب بهم ، وتشكرهم ولا تكلفهم الشكر ، والا فالبعد عنهم كل البعد ، والحذر منهم كل الحذر » .

ولابن المقفع وصايا خلقية ترد فيها النصيحة وضرب المثل الذي يؤيدها ، ومن ذلك قوله : « على العاقل الا يستصغر شيئا من الخطأ في الرأي والإغفال في الأمور ، ان من استصغر الصغير أو شك ان يجمع اليه صغيرا وصغيرا فاذا الصغير كبير ، لا يمنعنك صغر شأن امرىء من اختباء ما رأيت من رأيه صوابا ، واصطفاء ما رأيت من اخلاقه كريما ، فان اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذي استخرجها ، حق على العاقل ان يتخذ مرآتين فينظر من احداهما في مساوىء نفسه فيتصاغر بها ويصلح ما استطاع منها ، وينظر من الأخرى في محاسن الناس فيحكيهم بها ، والرجل ذو المروءة قد يكرم على غير مال ، كالاسد الذي يهاب وان كان عقيرا ، والرجل الذي لا مروءة له يهان وان كثر ماله كالكلب الذي يهون على الناس وان طوق وخلخل » .

واوصى ابن المقفع الخليفة المنصور فرسم له خطة للنظر فى الاقضية وضمان العدل فى الحكم ، فقال بعد أن تحدث عن اختلاف الاقضية : « فلو راى امير المؤمنين ان يأمر بهذه الاقضية والسنن المختلفة فترفع اليه فى كتاب ، ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس ، ثم نظر فى ذلك امير المؤمنين وامضى فى كل قضية رايه الذى يلهمه الله ، وكتب بذلك كتابا جامعا لرجونا ان يجمع الله هذه الاحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكما واحدا صوابا ، ورجونا ان يكون اجتماع السنن قرينة لاجتماع الأمر برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه » .

وتعبر هذه الوصية عن وجهة نظر ابن المقفع ، وان كنا لا نرى تقييد العلماء بالقضاء برأى الخليفة المنصور ، فالمنصور ليس محيطا بالشرائع، وباب الاجتهاد لابد أن يظل مفتوحا ، ومن اللفتات الجميلة قول ابن المقفع : « فلو راى أمير المؤمنين » .

فى النصف الثانى من القرن الثانى
وصية المهدى بقتل الزنادقة

كثر الزنادقة فى صدر الدولة العباسية ، وقتل الخليفة المنصور عبد الله بن المقفع ، وقتل المهدى صالح بن عبد القدوس وبشار بن برد وغيرهما ، واوصى المهدى ابنه الهادى بقتل الزنادقة وعمل الهادى بوصية ابيه ؛ ومن وصية المهدى لابنه وقد قدم اليه زندنق فاستتابه فأبى ان يتوب فضرب عنقه : « يابنى ، ان صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة فانها تدعو الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها الى تحريم اللحم وترك قتل الهوام تحرجا وتحوبا ، ثم تخرجها الى عبادة اثنين احدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات وسرقة الاطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة الى هداية النور ، فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بامرها الى الله ، فانى رايت جدك العباس فى المنام

قلدني سيفين وامرني بقتل اصحاب الاثنين » . وتكشف هـذه الوصية عن بعض مبادىء الزنادقة ، وجد الخلفاء فى القضـاء عليهم ، اما حكاية المنام الذى رآه المهدى فلا نظن الا انها من اختراع المهدى لتحميس ابنـه لقبول الوصـية .

وصـية بشر بن المعتمر

ومن اشـهر الوصايا الأدبية وصية بشر بن المعتمر وتعد من الوصـايا التى وضعت اسس البـلاغة العربية ، وقد أوردها الجاحظ فى كتـابه (البيان والتبيين) وجاء فيها : « خذ من نفسـك سـاعة نشـاطك وفراغ بالك واجابتها اياك ، فان قليل تلك السـاعة احسن فى الاسـماع واحلى فى الصدور واجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع ، واعلم ان ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمجاهدة » ، وهنـا يفتتح وصيته باختيار سـاعة النشاط وفراغ البال .

ثم يوصى الاديب بترك التوعر فانه يؤدى الى التعقيد ويعيب الالفاظ ويستهلك المعـانى واوصى بشر بالاهتمـام بالفظ والمعنى ، ومن قوله : « واياك والتوعر فان التوعر يسلمك الى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ويشـين الفاظك ، ومن اراغ معنى كريمـا فليلتمس له لفظا كريمـا » .

ثم يبين ان اولى المنـازل ان يجمع الأديب بين جمال اللفظ وقرب المعنى ، وهنـا يلتفت الى مقتضى الحـال ومراعاة السـامعين ان كانوا من العامة او من الخاصـة فيقول : « فان اولى المنـازل ان يكون لفظك رشـيقا عذبا وفخما سـهلا ، ويكون معنـاك ظاهرا مكتـوفا وقريبـا معروفا اما عند الخاصـة ان كنت للخاصـة قصدت ، واما عند العامة ان كنت للعـامة اردت ، وانما مدار الشرف على الصـواب مع موافقـة الحـال وما يجب لكل مقـام من المقـال ، فان امكنك ان تبلغ من بيـان لسـانك وبلاغة قلمك الى ان تفهم العـامة معانى الخاصـة وتكسـوها

الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الألفاظ فانت البليغ التام » .

ويوصي بشر بتأجيل الكتابة اذا تعسرت ويقول : « فان ابتليت بأن تتكلف القول ولم تسمح لك الطباع فلا تعجل ودعه بياض يومك وسواد ليلك وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك فانك لا تعدم الاجابة ان كانت هناك طبيعة » وتدل الجملة الأخيرة على التفات بشر بن المعتمر الى اثر الموهبة وأنها اساس نجاح الاديب ، وينصح من حرم هذه الموهبة بالعدول عن هذه الصناعة .

واخيرا يؤكد بشر ضرورة تجنب الألفاظ العامية والساقطة فيقول : « وكما لا ينبغي ان يكون اللفظ عاميا وساقطا فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا » .

وصية الرشيد لمؤدب الأمين

كان الخلفاء يهتمون بتربية ابنائهم ويعهدون الى كبار العلماء بتأديبهم وتعليمهم وقد عهد الرشيد الى الاحمر النحوي بتاديب ابنه الأمين ، واوصى الرشيد العالم الكبير وصية جامعة ، وقدم لهذه الوصية بمقدمة رائعة فقال : « يا احمر ، ان امير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعتك عليه واجبة ، فكن له بحيث وضعك امير المؤمنين » ، وتدل هذه المقدمة على ان الخلفاء كانوا يطلقون ايدي المؤدبين في تربية ابنائهم .

ثم يوصي الرشيد مؤدب ابنه بأن يعلمه ويبصره بآداب السلوك . ويامره بالشدة في معاملته ان لم تجد الملاينة ، يقول الرشيد : « أقرئه القرآن ، وعرفه الآثار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره مواقع الكلام وبدءه وامنعه الضحك الا في اوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا اليه ، ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ،

ولا تمرن بك ساعة الا وانت تغتنم فيها فائدة تفيده اياها من غير ان تخرق به فتميت ذهنه . ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فان اباهما فعليك بالشدة والغلظة » .

في القرن الثالث

من الوان الوصايا ما كان يكتبه احد الكبراء توصية بصاحب مصلحة ، وغلب على هذه الوصايا الايجاز البليغ حتى قال صاحب العقد الفريد : « كتب العتابي فكاد ان يخل بالمعنى من شدة الاختصار ، فكتب : « حامل كتابي اليك انا فكن له انا ، والسلام » .

وصايا البخلاء

كتب الجاحظ كتاب البخلاء ، وحوى هذا الكتاب كثيرا من وصايا البخلاء ، ولا تمثل هذه الوصايا مبادىء خلقية سامية ، وانما هي احاديث جرت على لسان البخلاء ، ولا نشك في ان بعضها واقعي وبعضها مخترع ، وان الجاحظ قصد الى ادخال المتعة والتسلية على نفوس القارئين ، وهناك دافع آخر هو الرد على الشعوبيين الذين حطوا من شان العرب ، فرد عليهم بذكر صور من بخلهم ليبين فضل العرب بسخائهم ، وقد أورد الجاحظ نماذج من بخل شخصيات عربية ، ولكن غالبية الحكايات كانت عن الفرس وجاءت الوصايا بالبخل على لسان شخصيات فارسية .

وتحفل هذه الوصايا بكثير من النصائح الطريفة والحجج المنطقية والاثارة العاطفية ، وتحفل ايضا بالمغالطات للوصول الى الهدف الذى ينشده البخيل ، وفي احدى هذه الوصايا يوصي البخيل عياله باكل نوى التمر وتعود ابتلاعه ، ويطنب في بيان فوائده فيقول : « لا تلقوا نوى التمر وتعودوا ابتلاعه ، فان النوى يعقد الشحم في البطن ويدفىء الكليتين بذلك الشحم ، والله لو حملتم انفسكم على البرد والنوى وعلى قضم الشعير واعتلاف القت لوجدتموها سريعة القبول » .

ثم يوصى ابنه بالاثرة اى حب النفس ، ويشبه الاكل بالافاعى والبراذين والنعاج والجمال بقصد التقبيح والتنفير ، ويستدل بالاثر وبالشعر فيقول : « اى بنى ، عود نفسك الاثرة ومجاهدة الهوى والشهوة ، ولا تنهش نهش الافاعى ، ولا تخضم خضم البراذين ، ولا تدم الاكل ادامة النعاج ، ولا تلقم لقم الجمال ، قال أبو ذر : ان الله فضلك فجعلك انسانا فلا تجعل نفسك بهيمة ولا سبعا ، وقال الاعشى : والبطنة يوما تسفه الاحلاما » .

ثم يحذر من الاكل ويتدرج فى الاسباب والمسببات حتى يجعل الاكول قاتل نفسه ، ويذكر فوائد الصوم وانه يطيل العمر فيقول : « واعلم ان الشبع داعية البشم ، وان البشم داعية السقم ، وان السقم داعية الموت ، ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لئيمة ، وهو قاتل نفسه ، وقاتل نفسه ألوم من قاتل غيره ، وقد قال الله جل ذكره : « ولا تقتلوا انفسكم » ، اى بنى ، ان القاتل والمقتول فى النار ، ولو سألت حذاق الاطباء لاخبروك ان عامة أهل القبور انما أتوا بالتخمة ، اى بنى ، والله ما ادى حق الركوع ولا وظيفة السجود ذو كظة ، ولاخشع لله ذو بطنة ، والصوم مصحة ، وكيف لا ترغب فى تدبير يجمع لك صحة البدن وذكاء الذهن وصلاح المعى وكثرة المال ؟ » .

فى القرن الرابع الهجرى

وفى هذا القرن مالت الوصايا الى الطول ، وورد بعضها فى رسائل تجمع بين الوصايا الاجتماعية والسياسية والدينية ، وقلت الوصايا الموجهة من الاشخاص الى كبار رجال الدولة ، وان كنا لا نعدم أمثال هذه الوصايا ، وكان كبار الكتاب يكتبون عن الخليفة عهد تقليد الوظيفة ويحشدون الوصايا فى ذلك العهد .

ووردت بعض الوصايا الموجزة فى مختلف شئون الحياة ، ومن ذلك وصية احمد بن سهل البلخى بالشورى ، وفى ذلك يقول : « شاور

فى امرك من جرب الأمور وخبرها ، وتقلبت عليه الحوادث وباشرها ، ما لم يوهنه ضعف الهرم ، ولم يغيره حادث السقم » .

وساد الاسلوب المسجوع فى القرن الرابع واهتموا بالمحسنات البديعية وخصوصا الطباق والجناس ، وصار الكاتب يورد المعنى الواحد فى جمل متعددة ويقلب المعانى على وجوهها المختلفة اظهارا لقدرة الكاتب الفنية ومعلوماته الغزيرة ، ومن الوصايا الطريفة وصية ابى بكر الخوارزمى لصديق له يوصيه وصية طبية ؛ ولم يكن أبو بكر طبيبا وانما كان اديبا مثقفا ، وكان فى كتاباته يطرق كثيرا من الأبواب محاولا أن يظهر ثقافاته المتنوعة ، وقد ورد عليه كتاب صديقه يشكو فيه الجرب فكتب اليه هذه الوصية ، وواضح انه يستمد معلوماته من المعارف العامة فى زمانه ومن نصائح الأطباء المتخصصين فى ذلك الوقت ، ولا يتخلى ابو بكر عن طريقته المعهودة واسلوبه الذى يهتم بالزينة فهو اسلوب اديب لا طبيب ، يقول فى مطلع الوصية :—

« ارى لسيدى ان يصبر على الجوع مع مرارته ، وعلى العطش مع حرارته ، وان يقتصر من الطعام على ما يكون فى اوسط طبقات الرطوبة وفى اعدل موازين البرودة ، ولابد من هجر اللحم والفاكهة ، ولا سبيل الى الحرافة ، فاما البقول فيجب الا ترى ولو فى المنام ولا تمس ولو بالأوهام ، والسمك وما تكسبه بلية ، واللبن وما خرج فيه منية » .

ثم يوصيه بشرب شربة تنظف معدته ، ثم بفصد الأكحل ويستعمل الخوارزمى هنا بعض المصطلحات الطبية الشائعة آنذاك كالسوداء والصفراء ، يقول : « حتى اذا احس فى معدته بالخلاء ووقف من طبيعته على الصفاء ، ومن اخلاط جسم بالاعتدال والاستواء ، شرب شربة قوية تكنس فضول السوداء وتخرج خبايا الصفراء ، وتقمع سلطان البلغم وتصفى كدورة الدم ، فاذا انجلى عنه خمار ضعفها وتقشعت عنه غيابة سكرها امدها بفصاد الأكحل فانه نهر العروق » .

واخيرا يوصى صاحبه باستعمال اللطوخ لعلاج ظاهر البدن ، وبالاكثار من الاغتســـال ، ويعلل لذلك بأن البارد اذا لقى الحار اطفا بعضه ، والطب الحديث يؤيد ذلك .

وصـــايا المتطفلين

المتطفلون الذين يذهبون الى الولائم بدون دعوة ، ويقبلون على الطعام بنهم شــديد ، واورد القلقشـــندى وصية بالتطفل انشاها ابو اســـحاق الصابى بناء على اقتراح معين الدولة بن بويه ووجهها باسم زعيم المتطفلين ويدعى عليكا ، وتقع الوصية فى ست صفحات نبرز هنا اهم نقاطها :

« هذا ما عهد على بن احمد المعروف بعليكا ، الى على بن عرس حين استخلفه على احياء سنته ، واستنابه فى حفظ رســومه ، من التطفل على اهل مدينة الســلام ، أمره بتقوى الله التى هى الجانب العزيز والحرز الحريز ، وقد عرفت التطفيل ولا عارفيه عند ذوى التحصيل لأنه مشتق من الطفل وهو وقت المساء واوان العشـــاء ، فلما كثر استعمل فى صدر النهار وعجزه واوله وآخره ، وامره أن يعتمــد موائد الكبراء والعظمــاء بغزاياه ، وســمط الأمراء والوزراء بسراياه ، فانه يظفــر منها بالغنيمــة الباردة ، ويصل عليها الى الغريبة النادرة ، واذا استقراها وجـد فيها من طرائف الالوان الملذة للســان ، وبدائع الطعوم الســائغة فى الحلقوم ما لا يجده عنــد غيرهم ، ولا يناله الا لديهم ، وامره أن يتتبع ما يعرض لوسرى التجار ومجهزى الأمصار من وكيرة الدار ، والعرس والاعــذار ، وان يصادق قهارمة الدور ومديريها ، ويرافــق وكلاء المطــابخ وحماليها ، وامره ان يروض نفســه ويغالط حســـه ويضرب عن كثير مما يلحقـــه صفحا ، ويطوى دونه كشــحا ، وامره ان يكثر من تعاهد الجوارشنات المنفذة للســـدد المقوية للمعد المشهية للطعام المسهلة للانهضام » .

وقد وردت الوصايا فى صور مختلفة فقد وردت فى صورة مشافهة أو خطبة أو توقيــع أو فى صــورة رســالة او فى صــورة عهد يكتبـــه

الموصى على نفسه او يوصى به لغيره ، وجاءت بعض الوصايا فى ابيات شعرية تحمل راى الشاعر وفلسفته فى الحياة ، وكانوا يختمون الوصايا بقولهم (والسلام) وقد يختمون بآية كريمة او بالصلاة على النبى ، وقد يختمون بالدعاء للموصى .

المناظرات

نشاة المناظرات وتطورها

المناظرة فن ادبى ظهر منذ ظهور الاسلام واختلاف وجهات النظر بين المسلمين والمشركين ، ونستطيع تعريف المناظرة بانها : « مجادلة بين اثنين او اكثر فى موضوع ما بهدف اثبات وجهة نظر » . والاصل فى المناظرة ان تكون مشافهة ولكنها تنوعت بين المشافهة والمكاتبة وتاليف الكتب ، واذا ذكرت المناظرة ذكرت السفسطة ، غير ان المعاجم القديمة لم تشر الى السفسطة لانها كلمة ماخوذة من اليونانية ؛ وقد اشار اليها المعجم الوسيط فقال : « سفسط غالط واتى بحكمة مضللة ، من اليونانية » .

وعرف السفسطة بانها : « قياس مركب من الوهميات ، والغرض منه افحام الخصم » وكان بعض المتناظرين يلجئون الى السفسطة لاثبات آرائهم .

وقد حوى القرآن بعض المناظرات الموجزة مثل قوله تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحيها الذى انشاها اول مرة وهو بكل خلق عليم » . وهنا يحكى مناظرة جرت بين النبى عليه السلام وأبى بن خلف ، وقد دعا القرآن الى النظر والتامل والاستنتاج واحترام العقل ولابد من اختلاف العقول البشرية فى الاستنتاج ، ولابد أن تظهر المناظرات دفاعا عن هذه الآراء المتعارضة ، واستمرت المناظرات فى عهد الخلفاء الراشدين وكانت فى صورة مبسطة وكانت معظم الاستدلالات بالنصوص الدينية .

وفى عهد بنى امية نشطت المناظرات ، وكان لظهور الاحزاب السياسية اثر فى ذلك اذ تناظر الشيعة والامويون والخوارج فى مسألة الخلافة وهل تنحصر فى آل النبى او فى قريش أو هى حق لجميع الناس ؟ كما كان لظهور المعتزلة وظهور آرائهم الكلامية ومناظرتهم لأصحاب المذاهب الاخرى وللملاحدة والزنادقة اثر فى نشاط المناظرات .

فى العصر العباسى

استمر ازدهار المناظرات فى العصر العباسى حتى اصبحت هواية يزاولها المتكلمون وغير المتكلمين ، وساعدت الظروف السياسية والعقائدية على ازدهار المناظرات ، ومنذ قيام الدولة العباسية اشتدت الخصومة بين العباسيين والعلويين وادعى كل منهما احقيته بالخلافة ، كما ثارت المناظرات بين المعتزلة واهل السنة ، بل أنهم اخترعوا مناظرات على السنة الحيوان والطير ترمز الى خلافات يعج بها المجتمع العباسى فقد ظهرت الشعوبية وتعصب كل شعب لنفسه وغض من شأن الشعب الآخر ، واخترع الجاحظ مناظرة طويلة بين الكلب والديك أو بين معبد والنظام وترمز الى الخلاف بين الفرس والعرب ، فالعرب يحبون الكلب ويقتنونه للحراسة ، والشعوبية تستقذر الكلب وتتسلى بالديك ، ولشدة ولعهم بالمناظرات كانوا يقيمون مناظرات يمدحون فيها الشىء ثم يذمونه اظهارا للمهارة والمقدرة .

وكان الخلفاء العباسيون يشجعون المناظرات ويستمعون الى المتناظرين ، غير أن الرشيد ضاق بالخلافات فمنع الجدال وحبس اهل الكلام ، ولكنه اضطر الى اطلاق سراحهم والاستعانة بهم لافحام الملحدين والزنادقة والمانوية ، ثم ولى الخلافة المأمون وكان يحب الاستماع الى المتناظرين كما كان مناظرا قوى الحجة ، ثم خرج بعض العلماء على المعتزلة وعلى رأسهم ابو الحسن الاشعرى وجرت بين الطرفين مناظرات ، كما ظهر بعض الملاحدة وعلى رأسهم ابن الراوندى ، والف كتبا ضد الاسلام فألفت كتب ترد على ابن الراوندى ، وبهذا برزت ظاهرة هى

الكتب المؤلفة فى المناظرات والرد على الخصوم واثبات النقيض ، وكان الصاحب بن عباد وزير آل بوية شيعيا معتزليا وكان مولعا بالمناظرات وكان يعقد المجالس ويناظر فيها العلماء وكل من دخل مجلسه .

ولم تكن المناظرات السياسية والعقائدية هى المناظرات الوحيدة فى هذا العصر ، فقد كانت هناك مناظرات نحوية ومناظرات فقهية ومناظرات فلسفية واخرى ادبية كتلك المناظرة التى جرت بين أبى بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمذانى .

عوامل ازدهار المناظرات

نستطيع أن نلخص عوامل ازدهار المناظرات فيما يأتى :

١ — حوى القرآن مناظرات موجزة ودعا الى النظر والتأمل والاستنتاج ، وترك الأمور الفرعية لاجتهاد العلماء واختلفت الآراء .

٢ — كان النبى يستشير اصحابه وأباح لهم الاجتهاد واستمع الى الآراء المتعارضة .

٣ — بعد وفاة النبى جدت أحداث مثل الثلاثة واختلف الصحابة وجرت بينهم مناظرات ، وظهرت الأحزاب واختلفت اتجاهاتهم واحتج كل منهم لرأيه .

٤ — تعددت المذاهب العقائدية كالمعتزلة واهل السنة ، وظهر الى جانبهم الزنادقة والملحدون واصحاب الديانات الأخرى ، وتناظروا ليثبت كل منهم صحة رأيه .

٥ — ظهرت الشعوبية وثارت الخلافات بين الفرس والعرب وغض كل طرف من شأن الطرف الآخر .

٦ — تشجيع الخلفاء ورجال الدولة للمناظرات واطلاق الحريات للمتناظرين ، ونظرة المجتمع اليهم نظرة اكبار وانبهار .

٧ — التأثر بالثقافات والآراء الأجنبية .

٨ — الرغبة فى اظهار المقدرة ، فكان بعض العلماء يمدحون الشىء ثم يذمونه .

اين ومتى جرت المناظرات ؟

كانت المناظـرات تجرى فى كل مكان وفى كل وقت ، فى قصـور الخلفاء وكبار رجال الدولة ، كما كانت تعقـد فى المسـاجد فى حضرة العلماء ، بل ان المناظرات كانت تجرى فى الأسـواق . وكانت تجرى فى بيت احد المتناظرين ، وجرت بعض المناظرات فى الشـارع كيفما اتفق ، وقد يتقابل المتناظران على احد الجسـور فيقفان للتناظر ويجتمع حولهما النـاس ، وكانوا احيـانا يجتمعون فى حلقـات يقف فيهـا المتنـاظرون وانصارهم ، ويتقدم احـد المتناظرين ومعه اصـحابه ويعلن رايه ويدعمه بالادلة ، ثم يتقدم خصمه ومعه اصحابه فيحاول أن يبطل رأى خصـمه ويبطل ادلته ، ويثبت رايه هو ويقدم البراهين .

ولم يكن للمناظرات وقت محدد فى كثير من الأحيان ، وقد يتقابل المتناظران بدون ميعاد ، وتدور بينهما المناظرة ، أما المناظرات التى كانت تدور فى مجلس الخلفاء والكبراء فكانت تعقد فى الصباح أو المسـاء ، وكانوا يلقون كل اكرام وتقدير من الرؤسـاء ، وجاء فى مروج الذهب « ان المـأمون كان يجلس للمناظرة فى الفقـه يوم الثـلاثاء ، فاذا حضر الفقهاء ادخلوا حجرة مفروشـة وقيل لهم : انزعوا اخفافكم ، ثم أحضرت الموائد فاصـابوا من الطعام ، ثم جددوا وضـوءهم ، ثم بخروا وطيبوا ، ثم تناظروا فى مسـائل الفقه » . ومعنى هذا ان الاجتماع كان نهارا قبل زوال الشمس ، وفى المناظرة التى جرت بين الخوارزمى والهمذانى دل حديث بديع الزمان على ان المناظرة كانت فى اواخر النهار بدليـل قوله : وهنا غاب النعاس الحاضرين فانفض المجلس وختمت الجولة الأولى من المناظرة .

آداب المناظرة

كان للمناظرة آداب وتقاليد مرعية قوامها الاحترام المتبادل والفقه فى القول ومراعاة الاتزان والمحافظـة على حسـن المظهر اثناء الجـدل والمناظرة ، وكان كلا المتناظرين يحاول نقض راى صـاحبه وابطال حجته ،

ولكن هذا لا يعد خروجا على حدود الذوق واللياقة ، وفرق بين هذا والتلفظ بالفاظ نابية ، يقول احمد بن ابى دؤاد لابراهيم بن المهدى : اذا نازعت فى مجلس الحكم امرأ فلا اعلمن انك رفعت عليه صوتا ولا اشرت بيد ، ولتكن ريحك ساكنة وكلامك معتدلا ، وكان الخلفاء يوفون المناظرين حقهم من الاحترام .

ثقافة المتناظرين

كان معظم المتناظرين على درجة عالية من الثقافة ، وقد تعددت مصادر ثقافاتهم بين ثقافة عربية اسلامية ، وثقافة مسيحية او يهودية ، وثقافة اجنبية يونانية وفارسية وهندية .

أولا — الثقافة العربية

(ا) تأثر المتناظرون بما ورد فى القرآن الكريم من حكاية احداث سابقة كتلك التى جرت بين ابراهيم وقومه ، أو جرت بين النبى محمد ومعارضيه ، وكانوا يستدلون فى مناظراتهم بآيات من القرآن الكريم ، وحاول بشار بن برد — وكان زنديقا — ان ينقض نظرية القرآن فى تفضيل آدم على ابليس وان يثبت أن النار افضل من الطين ، ورد عليه بعض الشعراء ناقضا رايه ، بل ان خصوم الاسلام كانوا يحاولون اثبات رايهم بآيات من القرآن يؤولونها حسب اهوائهم ، فاستدل القائلون بتناسخ الارواح بالآية : « فى اى صورة ما شاء ركبك » فزعموا أن المخلوق يركب فى صور عديدة ، وردوا عليهم بان المراد بالآية انها الصورة التى ركب عليها الانسان من طول او قصر او بياض او سواد وما ماثل ذلك ، وفى المناظرة المخترعة بين الكلب والديك استدل انصار الكلب على فضله بان الكلب ورد فى القرآن وبان اصحاب الكهف لم يستصحبوا معهم مما يالف الناس الا الكلب .

(ب) وتأثر المتناظرون بالأحاديث النبوية ، وكانوا يستدلون فى مناظراتهم بما ورد فى الحديث الشريف ، ولم يظهر هذا التأثر فى

المناظرات الدينية فقط ، ففى المناظرة بين الكلب والديك استدل انصار الديك على فضله بان ديكا صاح فسبه بعض الصحابة فقال النبى : لا تسبه ، فانه يوقظ الناس للصلاة .

(جـ) وكان المتناظرون يلمون بالحكايات والأمثلة العربية ويحفظون الأشعار ويستدلون بها ، وكانوا يستدلون بالحكايات وكأنها دليل قاطع ليؤيدوا رأيهم ، وقد استدل صاحب الكلب على فضل الكلب بما روى ان اناسا من السلطاء ضربوا جارا لهم وسحبوه ، وله كلب قد رباه فلم يزل ينبح عليهم ويشقق ثيابهم ، وقد استشهد ابو الهذيل العلاف احد زعماء المعتزلة فى احدى مناظراته بثلثمائة بيت .

(د) وقد تحدثنا عن تأثر المتناظرين بالأحداث العربية وكيف ثارت المناظرات بين العلويين والعباسيين حول الاحقية بالخلافة وتفضيل العم او البنت فى وراثة الخلافة .

ثانيا ـ المصادر اليهودية والمسيحية

وتأثر المتناظرون بالمصادر اليهودية والمسيحية ، وقد كان اليهود يقطنون بالمدينة ، وقامت بين اليهود والمسلمين نزاعات وحروب ، وكان لبيد بن الأعصم اليهودى يقول بخلق التوراة ثم قال بخلق القرآن ، وتنازع المسلمون فى هذه النظرية وحدثت بينهم نزاعات ومناظرات واوذى بعض العلماء بسبب هذه الآراء .

ومن ابرز الشخصيات اليهودية التى اثرت فى بعض النظريات الاسلامية عبد الله بن سبأ وكان ايام على بن ابى طالب ، وايد عليا ليثير الخلافات بين المسلمين ، ومن نظرياته نظرية الوصاية حيث قال : (انه لكل نبى وصى ، وعلى وصى محمد) ومن هنا ظهرت نظرية الوصية ، كما اعلن ابن سبأ نظرية الرجعة ، وقال : ان محمدا سيرجع مرة اخرى ، ثم قالوا برجعة على ، ثم برجعة محمد بن الحنفية ، ثم برجعة

ابى مسلم الخراسانى وكان اليهود يقولون برجعة النبى الياس ثم قالوا برجعة هارون اخى موسى .

كما تأثر المسلمون بالثقافة المسيحية وكان بالجزيرة العربية ايام ظهور الاسلام مسيحيون فى نجران وغيرها ، وكان العرب على اتصال بالغساسنة بالشام ، وكانت المسيحية منتشرة بين قبائل المناذرة بالحيرة ، ثم فتح العرب الشام ومصر وكانت المسيحية سائدة فيهما . وكان النظام احد زعماء المعتزلة يحفظ القرآن والانجيل وتأثر الشيعة فى قولهم بحلول روح الله فى على بنظرية الحلول المسيحية .

ثالثا ـ المصادر الاجنبية

وتعنى بها المصادر اليونانية والفارسية والهندية ، وقد اختلط العرب بهذه الشعوب منذ فجر الاسلام بالمعاشرة وبالاطلاع على ثقافاتهم ، كما دخل الاسلام كثير من هؤلاء ونقلوا الى العرب بعض آرائهم ومعتقداتهم .

وكانت الثقافة اليونانية مطروحة أمام العرب فى المكتبات وفى دكاكين الوراقين ، واهتم المتناظرون بدراسة الفلسفة اليونانية حيث وجدوا خصومهم يستعينون بها ، وكان بعض الفلاسفة والملحدين مختلطين بالمجتمع الاسلامى ، ومن النظريات التى دارت حولها المناظرات نظرية الكمون ، ويقرر النظام أن الله خلق كل الأشياء فى وقت واحد وانه لم يتقدم خلق آدم خلق ولده ، غير أنه اكمن بعض الأشياء فى بعض ، فالتقدم والتاخر انما يقع فى ظهورها دون خلقها ، وهى نظرية مستمدة من اصحاب الكمون من الفلاسفة .

كذلك تأثرت بعض المناظرات بآراء فارسية ، وقد خالط العرب الفرس وتأثروا بهم عن طريق المعاشرة والامتزاج وعن طريق الثقافة ، وتأثر الزنادقة وجماعة من الشيعة بآراء فارسية قديمة ، وقد جاء

وجل من فارس الى النبى عليه السلام فقال له : « رايتهم ينحكون امهاتهم واخواتهم وبناتهم ، فاذا قيل : لم تفعلون ذلك ؟ قالوا : بقضاء الله وقدره » ، وكان الزنادقة فى العصر العباسى يبيحون ذلك ، كما ان نظرة التقديس لعلى متاثرة بالنظرة الفارسية حيث كان الفرس ينظرون الى ملوكهم كانهم كائنات الهية فسرت هذه العقيدة الى جماعة الشيعة .

ومن المعروف ان بعض الفرق الاسلامية قالت بتناسخ الارواح ومنها الخابطية اتباع احمد بن خابط ، واساس القول بالتناسخ انما جاء عن الهنود ، وقالوا : ان النفس تنتقل من بدنها نحو آخر كما يستبدل البدن اللباس اذا خلق ، ونادت بعض الفرق بانكار النبوات ، وهم متاثرون بالبراهمة الهنود ، وهم يقولون : ان الذى ياتى به الرسول اما ان يكون معقولا واما الا يكون معقولا ، فان كان معقولا فقد كفانا العقل ادراكه ، وان لم يكن معقولا فلا يكون مقبولا ، وقال بهذا الراى الفيلسوف ابو بكر الرازى .

موضوعات المناظرات

تناولت المناظرات معظم جوانب الحياة ، وطرقت موضوعات دينية وسياسية وادبية وفلسفية ونحوية ، وبرت هذه المناظرات فى صور شتى فاحيانا تكون مشافهة ، واحيانا مراسلة واحيانا تكون عن طريق تاليف الكتب ثم الرد عليها ، وتتداخل الموضوعات فى بعض المناظرات ونحن نقسمها هنا باعتبار السمة الغالبة عليها ، فنقسمها الى مناظرات دينية وسياسية وادبية ونحوية وفلسفية ومناظرات مخترعة .

المناظرات الدينية

ومن المناظرات التى دارت حول مسائل دينية مناظرة جرت بين الامام مالك والامام الليث المصرى حول الاجتهاد ، وكانت هذه المناظرة كتابية حيث بعث مالك الى الليث يلومه لاستقلاله بالراى واجتهاده ويطلب منه اتباع راى اهل المدينة ، ورد عليه الليث ، ويقع هذا الرد فى ست صفحات ، ونبرز هنا اهم النقاط التى تضمنتها رسالة الليث .

تبدا الرسالة بالسلام وحمدا لله والدعاء ، ثم يقول : « انه بلغك انى افتى باشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم ، وان الناس تبع لأهل المدينة التى اليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن ، وقد اصبت بالذى كتبت به من ذلك » .

غير ان الليث ناقشه فى حرية العلماء فى كل مكان فى الاجتهاد ، يقول الليث : « واما ما ذكرت من قول الله تعالى : (والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه) فان كثيرا من اولئك السابقين خرجوا الى الجهاد واجتمع اليهم الناس فاظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ولم يكتموهم شيئا علموه ، وكان فى كل جند منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنة نبيهم ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة ، فاذا جاء امر عمل فيه أصحاب رسول الله على عهد ابى بكر وعمر وعثمان ولم يزالوا عليه حتى قبضوا فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين ان يحدثوا اليوم امرا لم يعمل به سلفهم ، مع ان اصحاب رسول الله عليه السلام قد اختلفوا بعد فى الفتيا فى اشياء كثيرة ، ثم اختلف التابعون ، ثم اختلف الذين كانوا بعدهم .

ويظهر هنا ان الليث يؤيد الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص ، ويجوز اجتهاد العلماء فى كل مكان لأن الصحابة انتشروا فى البلاد واظهروا ما عندهم من العلم وعلموه الناس ، ويرى الليث ايضا ضرورة التقيد بما جرى عليه العمل فى عهد ابى بكر وعمر وعثمان ، ولم يدخل على ابن ابى طالب معهم لأن الشيعة ابتدعوا اقوالا ونسبوها الى على ولم يعد يوثق بما نقلوه عن على رضى الله عنه .

المناظرات السياسية

وأشهر المناظرات السياسية دارت حول الخلافة ، وبعد قيام الدولة العباسية ظهرت نظرية تنادى بحق العباسيين فى الخلافة ، واثارت

هذه النظرية مناظرات بين العباسيين والعلويين وأيد العباسيون وجهة نظرهم بان العباس عم النبى فهو اولى الناس بوراثته ، وابطلوا حق العلويين بان العم يحجب ابن العم ويحجب ابناء البنت فالعم عصبة ، واستدل مؤيد والعباسيين بآيات الميراث وطبقوها على الخلافة .

وفى عهد الخليفة المنصور خرج محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية ، وفزع المنصور وكتب اليه ينفره من الخروج على الامام ، ويعده ان هو رجع الى الطاعة ان يؤمنه على نفسه وولده واهله وان يعطيه الف الف درهم ، ولكنه رفض وكتب الى المنصور رسالة يؤكد فيها احقية العلويين بالخلافة ، فرد عليه المنصور برسالة يثبت فيها احقية العباسيين بالخلافة ، فكانت مناظرة كتابية رائعة ، ونوجز هنا ما ورد فى الرسالتين :

كتب محمد بن عبد الله بعد المقدمة : « وقد تعلم أن الحق حقنا وانكم انما طلبتموه بنا ، ونهضتم فيه بشيعتنا ، وأن ابانا عليا عليه السلام كان الوصى والامام فكيف ورثتموه دوننا ؟. وقد علمت انه ليس احد من بنى هاشم يمت بمثل فضلنا وانا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية دونكم ، وبنو آمنة فى الاسلام من بينكم ، فانا اوسط بنى هاشم نسبا ، وخيرهم اما وابا ، وان الله تبارك وتعالى لم يزل يختار لنا فولدنى من النبيين افضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن اصحابه اقدمهم اسلاما واوسعهم علما واكثرهم جهادا على بن ابى طالب ، ومن نسائه افضلهن خديجة ، ومن بناته سيدة نساء اهل الجنة ، ومن المولودين فى الاسلام الحسن والحسين وهما سيدا شباب اهل الجنة » .

وكتب الخليفة المنصور الى محمد بن الحسن رسالة مطولة ردا على رسالته نوجزها فيما يلى :

« من عبد الله امير المؤمنين الى محمد بن عبد الله ، اما بعد ، فقد

اتاني كتابك فاذا جل فخرك بالنساء لتضل به الحفاة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة ، ولقد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم وعمومته اربعة ، فأجابه اثنان احدهما ابى وكفر اثنان احدهما أبوك ، واما ما ذكرت من انك ابن رسول الله فان الله ابى ذلك فقال : (ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله) ، ولكنكم بنوا بنته وانها لقرابة قريبة غير انها امراة لا تحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم فكيف تورث الامامة من قبلها ؟ ولقد طلب بها ابوك فأبى الناس الا تقديم الشيخين ، ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالصلاة غيره ، ثم كان فى اصحاب الشورى فكل دفعه عنها .

وافضى امر جدك الى أبيك الحسن فسلمه الى معاوية بدراهم فان كان لكم فيها شيء فقد بعتموه ولقد علمت ان جدك عليا حكم حكمين واعطاهما عهده على الرضا بما حكما به فاجتمعا على خلعه ثم خرج عمك الحسين فكان الذين معه عليه حتى قتلوه ، ثم خرج منكم غير واحد فقتلتكم بنو امية ، حتى خرجنا فادركنا بثاركم اذ لم تدركوه ، ولقد علمت ان مآثرنا فى الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم وكان للعباس دون اخوته ، وتوفى رسول الله وليس من عمومته أحد حيا الا العباس فكان وارثه دون بنى عبد المطلب . ولقد جاء الاسلام والعباس يمون ابا طالب ، ثم فدى عقيلا يوم بدر ، فقدمناكم فى الكفر وفديناكم من الاسر وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وادركنا من ثاركم ما عجزتم عنه ، والسلام » .

المناظرات الادبية

كانت المناظرات الأدبية تدور فى مجالس الرؤساء وبعيدا عن هذه المجالس ، وكان للأدباء مكانة مرموقة وكان هناك تنافس بينهم ، وكثيرا ما ترتب على هذه المناظرات صعود للفائزين وهبوط للمهزومين ،

ومن اشــهر المناظرات الادبية مناظرة بديع الزمان الهمذاني وابى بكر الخوارزمى ونتحدث هنا بايجاز عن هذه المناظرة :

جرت هـذه المناظرة فى أواخـر القرن الرابع الهجـرى ، وكان الخوارزمى فى نيســابور متربعــا على عرش الزعامة الادبية وكان قـد تجاوز الستين من عمره ، أما بديع الزمان فكان فى مقتبل الشباب وكان تياها بنفسه طموحا الى تستم المعالى ، وقصد الهمذانى نيسابور وزار ابا بكر فى منزله ثم كتب اليه رســالة يشكو فيها عدم اهتمام ابى بكر به، وطلب اليه أن يرد الزيارة ، وظل يحتك بأبى بكر ثم تحداه ان يناظره فى مجلس عام يضــم الجماهير وزعمــاء نيســابور ، ووافق ابو بكر . وعقدت المناظرة ، وروى لنا هذه المناظرة بديع الزمان ، ويبدو انه بالغ فى تعظيم نفســه والحط من شأن ابى بكر .

وكان هناك أسباب ساعدت على فوز بديع الزمان وانحيــاز الناس اليه فقد كان ابو بكر كثير الهجاء لم يســلم من لســانه احد من الرجالات البارزين ، وكان ابو بكر شــيخا تجاوز الستين ، وكان بديع الزمان فى عنفوان الشــباب قوى الحافظة قادرا على التصرف فى فنــون القــول بصورة لا يســتطيعها غيره ، ثم ان البديع كتب قصــيدة هجاء للشــيعة ونسبها الى أبى بكر فاثار الناس ضــده ، ثم انه اثار اعصــاب ابى بكر بالسب والسخرية كأن يقول له : تستحق الصــفع ، وكان التفوق فى النهاية لبديع الزمان .

وتبــدأ المناظرة ويبرز بديع الزمان ثلاثين بيتــا من شــعر أبى بكر ويعرض ان يقرن كل بيت بوفقه بشرط الا يقطع النفس ، ويقول ابو بكر : ما الذى يؤمننا ان تكون نظمت من قبل ما تريد الآن انشــاده ؟. ويرد بديع الزمان متحديا : اقترح لكل بيت قافية لا اســوقه الا اليها ، ويأبى ابو بكر الا بيتا يجيزانه ، فيجيزان بيت المتنبى :

أرقٌ على أرقٍ ومثلى يأرقُ وجوى يفيض وعبره تترقرقُ

ويقول كل منهما ابياتا على هذه القافية ، ويبدأ بديع الزمان جولة من النقد الادبى فيقول : لكنى اراك بين قواف مكروهة وقافات خشنة كل قاف كجبل قاف ، وهنا يلتفت الى انسجام القافية وتسلسل الألفاظ وخفة وقعها ، ثم يعيب عليه انه جمع بين معنيين متناقضين فخاطب بقوله : (يا سيدى) وعطف على ذلك قوله : (فاراك عند بديهتى تتقلق) وتناس بديع الزمان ان هذا الخطاب ادب جم ، ودخل المتناظران فى جولة من السباب ، ونال الارهاق من الحضور وانفض المجلس ، وانتهت الجولة الاولى .

ثم عقدت الجولة الثانية بعد أيام ، واقترح أبو بكر النحو ، واعتل بديع الزمان بأن النهار قد ارتفع وفى النحو يضيع اليوم ، وقد تهرب البديع من النحو لأنه لا مجال فيه للأفانين التى يجيدها الهمذانى كما سنرى ، ويعودان الى الادب ، ويعترض ابو بكر على قول البديع :

والطير مثل المحصنات صوادح   مثل المغنى شاديا بغنائه

ويتساءل أبو بكر : شبهت الطير بالمحصنات . واى شبه بينهما ؟ ، ويرد بديع الزمان : اذا جاء الربيع كانت شوادى الأطيار تحت ورق الأشجار فيكن كالمخدرات تحت الأستار ، ويقول أبو بكر : لم قلت : مثل المحصنات ، مثل المغنى ؟ ويرد بديع الزمان : هن فى الخدر كالمحصنات ، وكالمغنى فى ترجيع الاصوات .

ويعود بديع الزمان الى التحدى فيقول : اكتب كتابا على المعنى الذى اقترح ، وأنظم شعرا فى المعنى الذى اقترح ، وافرغ منهما فراغا واحدا ، أو اكتب كتابا فى المعنى الذى اقول ، وانشد من القصائد ما اريده حتى اذا كتبت ذلك قرىء من آخره الى أوله . ويرد ابو بكر : هذه شعبذة ، ويكتب بديع الزمان كتابا يقرأ من آخره ، ويقول بديع الزمان : وقاموا عن المجلس يفدوننى بالأمهات والآباء ويشيعونه باللعن والسب ، وقام أبو بكر فغشى عليه » .

وفى مناظرة البديع والخوارزمى عناية بالازدواج وبسائر المحسنات البديعيه ، والتزام للسجع ، حتى أن البديع عاب على الخوارزمى انه اتى بجملتين غير مسجوعتين ، والاديبان مولعان بالالفاظ الغريبة ، واهتم المتناظران بالنقد اللغوى والفنى والعروضى ، ومن النقد اللغوى استثقاله للقافات ، ومن النقد العروضى الاعتراض على الاقواء وهو اختلاف حركة القافية ، ومن النقد الفنى طعنه على تشبيه الطير بالمحصنات وبالمغنى ، ونحن لا نطمئن لكل ما اورده بديع الزمان فلم يكن ابو بكر قزما بجانبه كما صوره .

المناظرات النحوية

وكثرت المناظرات النحوية فى العصر العباسى ، ونكتفى هنا بمثال واحد هو المسألة الزنبورية كما يسمونها ، وكانت بين سيبويه والكسائى فى القرن الثانى الهجرى ، وكان سيبويه قد قدم على البرامكة وجمع يحيى بن خالد البرمكى بين سيبوية والكسائى للمناظرة فى مجلسه ، واقبل الكسائى على سيبويه فقال : تسالنى او اسالك قال : بل تسالنى انت ، فقال الكسائى : كيف تقول : كنت اظن ان العقرب اشد لسعة من الذنبور فاذا هو هى ؟ أو فاذا هو اياها ؟ قال سيبويه : فاذا هو هى ، ولا يجوز النصب ، فقال الكسائى : لحنت ، ثم ساله عن مسالة اخرى ، فقال يحيى البرمكى : قد اختلفتما وانتما رئيسا بلديكما فمن ذا يحكم بينكما ؟ فقال له الكسائى : هذه العرب ببابك قد اجتمعت وهم فصحاء الناس فيحضرون ويسالون ، فامر يحيى باحضارهم وسئلوا فوافقوا الكسائى ، وكان الكسائى يتفق مع الاعراب المجتمعين بباب الخليفة على تأييده ويكافئهم ، وكان الكسائى على علاقة طيبة بالخلفاء العباسيين ، وحجة سيبوية أن (هو مبتدا) ولابد له من خبر مرفوع وهى ضمير رفع عائد على العقرب لانها مؤنثة ، وهو عائد على الزنبور مذكر ، ولا يصلح الضمير (اياها) لانه ضمير نصب فان ورد فهو من الشاذ الذى لا يعبأ به .

اهتم العرب بدراسة الفلسفة ، ثم ظهر فلاسفة العرب وصار لكل منهم مذهب فلسفى معروف ، وجرت بينهم مناظرات ، وكان الفيلسوف ابو بكر محمد بن زكريا الرازى ينكر النبوة ويرى ان العقل وحده يستطيع ان يهتدى الى ما فيه خير الدنيا والآخرة والاعتماد على غيره تحقير له ، وقد ناظره ابو حاتم الرازى ورد عليه وفند حجته ، ونورد هنا فقرات من مناظرة جرت بينهما .

يقول ابو بكر الرازى : « ان البارى اعطانا العقل لننال من المنافع العاجلة والآجلة غاية ما فى جوهر مثلنا نيله وانه اعظم نعم الله ، فحقيق علينا الا نحطه عن رتبته ، ولا نجعله — وهو الحاكم محكوما عليه ، بل نرجع فى الأمور اليه » ، ثم يقول : « من اين اوجبتم ان الله اختص قوما بالنبوة ؟ ومن اين يختار لهم ذلك ويؤكد العداوة بينهم ؟ » .

ومما رد به ابو حاتم الرازى قوله : « أوجدنى حقيقة ما تدعى ، فانا لا نرى فى العالم الا عالما ومتعلما فى جميع الأديان والمقالات ، ولا نرى الناس يستغنى بعضهم عن بعض ولم يلهموا ما ادعيت من منافعهم ومضارهم فى امر العاجل والآجل ، وانت تدعى انك خصصت بالعلوم التى تدعيها من الفلسفة واوجبت على غيرك التعلم منك » .

المناظرات المخترعة

هناك مناظرات مخترعة اطولها تلك التى اخترعها الجاحظ بين النظام صاحب الكلب ومعبد صاحب الديك ، وجاءت هذه المناظرة فى كتاب الحيوان واستغرقت عشرات الصفحات ، وكانت الشعوبية التى تستقذر الكلب دافعا الى هذه المناظرة حيث يهتم العرب بالكلب ويقتنونه فى بيوتهم للحراسة .

والمناظرة دراسة واسعة لمزايا ومساوىء الكلب والديك ، وهى مبنية على المعلومات الشائعة ، وتستعين الدراسة بالآيات القرآنية

والأحاديث النبوية والأشعار العربية والأمثلة ايضا ، ونورد هنا أجزاء من هذه المناظرة .

يبدأ معبد صاحب الديك بذم الكلب ، ويقول : « وما بلغ من قدر الكلب من لؤم أصله وخبث طبعه وسقوط قدره واجتماع الأمم كلها على استسفاله » ، وفي موضع آخر يصف الكلب بانه خائن لا يحفظ الجميل وفي المثل : سمن كلبك ياكلك » ، وقال الشاعر :

واني وقيسا كالمسمن كلبه تخدشه أنيابه واظافره

ويرد النظام مدافعا عن الكلب ، ويتحدث عن ذكاء الكلب ووفائه وصبره على الجوع فيقول :

« والكلب يعرف صاحبه ويعرف اسمه ويالف موضعه ، وان طرد رجع وان أجيع صبر ، وذلك سوى جودة الشم واثباتها لصور اربابها ويقظتها وبعد أصواتها وكثرة نسلها وجدها ولعبها » ويأتي بأبيات في مديح الكلب كقوله :

« يكاد اذا ما ابصر الضيف مقبلا يكلمه من حبه وهو اعجم »

ويتحدث عن أصحاب الكهف وورود ذكرهم في القرآن ، وانهم لم يستصبحوا غير الكلب » .

ويتحدث النظام عن مساوىء الديك واعتماده على غيره ويعيب عليه صوته الذي لا يطرب وانه لا يطير يقول : « واما الديك فمن بغاث الطير والعيال على اربابها وليس مما يطرب بصوته كالقمرى والبلابل ، ولا مما يوثق بمنظره كالطواويس ، وهو طائر لا يطير وبهيمة لا يصيد ، ولا هو مما يكون صيدا فيمتع » .

ثم يتحدث عن مساوىء الديك الواقعية وانه يفقأ العيون ، ويأتي بواقعة تمس حفيد رسول الله اذ يقول : « فاذا ذكرتم جنايات الكلاب

فواحدة من جنايات الديكة أعظم لأن عبد الله بن عثمان بن عفان ابن بنت رســـول الله انما مات من نقر ديك نقر عينه » .

ويورد النظام محاسن الديك وفضائله ومنها لحمه الذى يرغب الناس فيه فيقول : « وملوكنا واهل العيش منا لا يرغبون فى شىء من اللحمـــان رغبتهم فى الدجاج » ويذكر ان الديكة أمة تسـبح الله ، وينسب معبد الى الديك صـــفات عديدة كالشجاعة والصبر ومعرفة ساعات الليل ، ثم جمال المنظر ، ومن قوله : « ثم معرفة الديك بالليل وساعاته ، وارتفاق بنى آدم بمعرفته وصوته ، يعرف آناء الليل وعدد الساعات ثم يقسط اصواته على ذلك ، وهذا مع ما أعطى من محبة النساء ورحمة الرجال ».

وهكـــذا طرقت المناظرات كل جوانب الحيـــاة ، وعمقت المعـــانى وتطورت مع تطور الثقافة والعقلية العربية ، وظهر فيها التـــذوق الأدبى والنظرة العلمية الفاحصة ، وحوت بعض المناظرات أفكارا دخيلة مقتبسة من الفلســـفات الأجنبية كنظرية الكمون كمـــا حـــوت كثيرا من المعلومات التاريخيـــة .

واهتـــم المتناظرون احيـــانا بجمال الأســـلوب الى جانب الاقنـــاع المنطقى ، وكثرت الألفـــاظ الاصطلاحية ، وعنوا باختيـــار الالفاظ الملائمة وترتيبها ، واقتبســـوا من القرآن ومن الحـــديث ومن الشـــعر والحكـــم والأمثال ، ويكثر ورود اســـاليب التوكيد فى المناظرات لأن المنـــاظر يريد ان يؤكد افكاره ، على ان المناظرات كانت فقيرة فى الخيـــال والتصـــوير لانهم كانوا يهتمون بالاقنـــاع والاســـتدلال وهذا صارف لهم عن الاهتمام بالخيـــال ، وكانت المناظرات تتراوح بين الايجاز والاطناب ، وجاءت فى معظم الأحيـــان مشافهة واحيانا عن طريق الترأسل ، وقـــد يكتب احدهم كتـــابا ثم يرد عليه خصمه .

معنى المقامة : عرفت لفظة مقامة فى العصر الجاهلى بمعنى المجلس وبمعنى الجماعة الذين يجلسون فى المجلس ، قال زهير بن ابى سلمى :
وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل

وفى العصر العباسى أستعملت الكلمة فى المعنى الأدبى بمعنى الحديث الادبى المكتوب ، ثم أستخدمت الكلمة لتدل على الحديث الذى يلقى فى المجلس ، وبهذا المعنى استخدمها بديع الزمان الهمذانى اذ يقول فى المقامة الوعظية : « غريب قد طرأ لا اعرف شخصه فصبر عليه الى آخر مقامته » .

وبديع الزمان أول من أنشأ المقامة بهذا المعنى واعطاها معنى أصطلاحيا غلب عليها حيث استعملها فى (حديث المكدين الذى يلقى فى جماعة فى شكل قصصى يهتم بالاسلوب ويتخذ راوية وبطلا) .

مولد بديع الزمان وحياته : ولد أبو الفضل احمد بن الحسين (بديع الزمان) فى همذان من أصل عربى وكان يعتز بعروبته ومولده سنة٣٥٨هـ وتوفى سنة ٣٩٨ وظهرت عليه أمارات الذكاء والعبقرية منذ صباه ، وكان ابيا معتزا بنفسه بل انه كان متعاليا ، وكان كثير الترحال ولقى ترحيبا من الرؤساء لما ذاع من صيته ، وقد زار الصاحب بن عباد وزير آل بويه فى أصبهان ، وذهب الى جرجان ، ثم الى نيسابور حيث لقى أبا بكر الخوارزمى ، ثم زار سجستان ولقى أميرها خلف بن احمد ، ثم تركه واتجه الى غزنة عاصمة السلطان محمود بن سبكتكين واخيرا زار هراة وتزوج من أحدى الأسر العريقة ولكنه مات عن اربعين عاما ، وخلف كتاب المقامات ، وكتابا يضم رسائله ، وديوان شعر .

الظروف التى كتب فيها البديع مقاماته

كتب البديع مقاماته فيما بين سنتى ٣٨٢/٣٨٣ بعد وصوله الى نيسابور ومناظرته لأبى بكر الخوارزمى ، وكان بديع الزمان طموحا

يتطلع الى انفراده بالقمة ، وهو كاتب ولكن غيره يزاول الكتابة ، وهو شاعر ولكن غيره يقرض الشعر ، فلتكن هـذه المقامات التى ينفرد بها ولا يتطاول اليها غيره ، وكان بديع الزمان يملى المقامة فى آخر مجلسه حيث يقول : « اقترحوا موضوعا املى فيه مقامة » فيقترحون الموضوع ، وهكذا اثبت مقدرته وارتجا له لما يملى .

المقـامات والقصص القصـيرة

(١)

نصف مقـامات بديع الزمان نسـتطيع ان نعـدها قصصا قصـيرة فيه الأحـداث النابعة من الحيـاة والممزوجة بعاطفـة الاديب ، وفيهـا الشخصيات التى تؤدى أدوارها اداء واقعيا او متوقعا ، وتتحرك وتتحاور وفيها العقدة والحل وان كانت عقدا سـاذجة .

ونستطيع أن نقول : ان بديع الزمان أحد الذين اسهموا فى وضـع اسس القصـة القصـيرة فى الادب العربى ، وحين نقـول ذلك نلتفت الى العصر الذى عاش فيه بديع الزمان ، ويرى بعض الأدباء ان القصة الحديثة نشـات متاثرة بالقصص القـديم وبالمقـامات على وجه الخصوص واذا كنـا نرى اختلافا واضـحا بين المقـامة والقصة الحـديثة فاننا نقول : ان المقـامة قـد تطورت تبعـا لمتطلبات العصر ، وتاثرت ايضا بالقصـة الأوربية الحـديثة ، ولكل عصر ملامحه الادبية ولا يجوز أن نطبق القواعد الحديثة على عصر بديع الزمان الهمذانى .

عـدد المقـامات

وردت نصوص تدل على ان بديع الزمان انشا اربعمائة مقامة ، وقال بديـع الزمان بذلك فى احـدى رسائله ، ولكن الذى حفظ لنا من هـذه المقـامات خمسـون مقامة ، ويرى بعض الأدباء أن بديع الزمان لم ينشىء الا هـذه المقامات الخمسـين ، وليس ببعيد أن يكون قـد انشـا اربعمائة مقامة وضاع معظمها فيما ضاع من ادب تلك الفترة .

اسماء المقامات

تشتق اسماء المقامات غالبا من البلدة التى تجرى فيها الاحداث كما فى المقامة الاذربيجانية والبلخية والبغداذية والبصرية ، وقد تكون النسبة الى المكان الذى تجرى فيه الاحداث كما فى المقامة المارستانية نسبة الى البيمارستان الذى قابلوا فيه مجنونا جعل ينقذ مذهبهم ، وقد تنسب المقامة الى الموضوع الذى تعالجه ، فالمقامة القريضية نسبة الى القريض اى الشعر لانه تنقذ الشعراء القدامى ، والمقامة الحرزية نسبة الى الحرز الذى ادعى أبو الفتح الاسكندرى انه ينجى من الغرق ، واحيانا تنسب المقامة الى شخصية هامة وردت فى المقامة كما فى المقامة الجاحظية نسبة الى الجاحظ حيث تتناول المقامة ادبه بالنقد ، وقد تكون النسبة الى صفة البطل كما فى المقامة المكفوفية حيث كان ابو الفتح الاسكندرى يتظاهر بانه مكفوف وينشد شعرا يستدر به عطف الناس .

الشخصيات

اتخذ بديع الزمان لمقاماته راوية وبطلا ، أما الراوية فهو عيسى ابن هشام ، فالمؤلف يبدء مقاماته دائما بعبارة : » حدثنا عيسى بن هشام قال : » ، ثم يورد المقامة على لسان هذا الراوى وهو شخصية لا وجود لها ، وكذلك ابو الفتح الاسكندرى الذى اتخذه بطلا لمقاماته شخصية لا وجود لها ، وفى المقامة يلتقى عيسى بن هشام بابى الفتح الاسكندرى ويتعرف عليه بعد أن يستمع الى حديثه ويعجب به ، واحيانا يتعرف عليه قبل ان يستمع الى حديثه ، وقد ظهر ابو الفتح بطلا لاربعين مقامة، ولا يظهر ابو الفتح فى سمة واحدة فى المقامات فهو تارة شاب وتارة كهل وتارة وسيم وتارة قصير اذ لا رابطة بين مقامة واخرى ، كما انه يظهر فى مواقف مختلفة تبعا للحكاية فى كل مقامة فتارة يتسول بالأدب وتارة يعظ الناس ، وتارة يوصى ابنه بالحرص على المال ، وتارة ينقد الشعراء والكتاب او ينقذ المذاهب والمعتقدات ، وهكذا ، وابرز صفات ابى الفتح انه ذكى واسع الحيلة اديب مثقف محب للمال .

والى جانب الراوية والبطل نرى الشخصيات الثانوية ويمثل هؤلاء كثيرا من طوائف الشعب يختلفون فى ثقافاتهم واتجاهاتهم : فقد يكونون من الادباء والمثقفين والمعجبين بأبى الفتح ؛ وقد يكونون ندامى يتعاطون الكأس ، وأحيانا نرى رفيق طريق او قاطع طريق او عاملا فى الحمام يؤدى عمله او شيطانا ينشد الشعر ، وهكذا مما يستلزمه الدور.

ودائما تستريب هذه الشخصيات لأبى الفتح وتتأثر بحيلته او تعجب بموقفه وفصاحته ، واحيانا لا تؤدى هذه الشخصيات دورا مهما فى المقامة كان يكونوا ضيوفا على مائدة او ندامى فى مجلس لا يؤدون دورا بارزا ، واحيانا تؤدى هذه الشخصيات الثانوية ادوارا مهمة فى المقامة . وفى المقامة الاسدية يتقدم فتى لمنازلة الاسد ويقتله ، ثم يظهر قاطع طريق يخدعهم ويصحبهم الى مكان ظليل ويعلق اسلحتهم ويعرض بعض العصابه ويقتل احدهم ويسلبهم ما معهم ، وفى المقامة الا بليسية يظهر شيطان الشعر ويحادث عيسى بن هشام وينشده ويسمع منه .

وهذه الشخصيات نابعة من البيئة وتصور نماذج من طبقات المجتمع ، ولذلك نرى الشخصيات من الرجال لأن النساء لم يكن يشاركن فى الأعمال العامة ، ولم تظهر المرأة الا فى اربعة مواقف ففى المقامة الخمرية يتوجه عيسى بن هشام ومعه اصحابه الى الحانة ويقول : « فدفعنا الى ذات شكل ودل ووشاح منحل ، اذا قتلت الحاظها احيت الفاظها فأحسنت تلقينا » ، وفى المقامة الهندية تظهر ابنة صاحب الدار وتقدم لهم الطعام ، وفى المقامة الموصلية يتحدث عن ميت ونساء قد نشرن شعورهن يضربن صدورهن ويلطمن خدودهن ، وفى المقامة الاسودية نسمع صوت فتاة من داخل الخباء تحيى الضيف .

العقدة والحل

فى كثير من المقامات عقدة او عقد متعددة ؛ وبعض هذه المقامات جاءت مجرد سرد لا تحوى عقدة كما فى المقامة الوعظية والمقامة الوصية ، وبعض

المقامات فيها عقدة ساذجة ولكنها تصور مازقا نتج من الاحداث يتطلع القارىء الى معرفة نهايته ، ومن هذه العقد الساذجة ما جاء فى المقامة البغداذية حيث يستدرج عيسى بن هشام سواديا ساذجا ويأكلان ما لذ وطاب من لحم وحلوى وليس معه نقود ، وهنا تتعقد الامور ونشتاق الى معرفة النهاية وكيف تخلص عيسى بن هشام من هذا المازق ؟ وماذا فعل السوادى ؟ ويأتى الحل حين يستأذن عيسى بن هشام لاحضار ماء مثلج وينصرف الى غير رجعة ويستمهل السوادى صاحب المطعم ولكن الانتظار يطول ، ويضطر السوادى الى حل الكيس وهو يقول : كم قلت لذلك القريد : انا ابو عبيد ، وهو يقول : يا ابو زيد .

وجاءت بعض المقامات طويلة متشابكة الاحداث تتطور فى احداث متتالية ، ومن ذلك ما نراه فى المقامة الصيمرية حيث يقدم البطل بغداد فى ثروة كبيرة ويصطفي صحبه من الأدباء والتجار واضرابهم ، ويعيشون عيشة مترفة بين الأطعمة الفاخرة والأشربة المعتقة والمغنيات الجميلات وهو ينفق امواله بلا حساب ، حتى فرغ الجراب وهجره الأصحاب ، وتلك حلقة من حلقات القصة تتبعها الحلقة الثانية حيث يجتهد البطل فى حفظ النوادر والأخبار والاشعار والفلسفة ، ثم يتسول ويكدى ويمدح ويهجو حتى يجمع ثروة لا بأس بها ويعود الى مظهرة الأنيق ، ولكنه لا ينسى الانتقام ، وهنا تبدأ الحلقة الثالثة حيث يتصل باصدقائه القدامى ويوهمهم بانه صفح عنهم ، وتعود الحياة اللاهية ولكنه مصمم على الانتقام ، وهنا نتشوق لمعرفة الحل وكيف حقق البطل الانتقام ؟ ثم نرى الحل الذكى حيث يستضيفهم ويطعمهم ويسقيهم حتى يسكرهم ويستحضر المزين فيحلق لحاهم ويصر كل لحية فى ثوب صاحبها ويحمل كل واحد منهم فى سلة الى بيته ومعه رقعة مكتوب فيها : « من اضمر بصديق الغدر وترك الوفاء كان هذا مكافأته والجزاء » .

وقد تشمل المقامة اكثر من عقد كما نرى فى المقامة الاسدية حيث يخرج عيسى بن هشام فى رفقة من اصحابه ، واذا الاسد يعترض

طريقهم ، ويصف بديع الزمان هذا الموقف الرهيب فى تعصيل واثارة حتى نود ان نعرف كيف خرجوا من هذه المحنة ؟ وهنا يتقدم فتى شجاع ولكن تخونه قدماه امام هيبة الاسد ، ويتقدم اليه ثان يعقل الرعب يديه ولكن اصحابه يلقون على الاسد عمامة تشغل فمه حتى يتمكن الفتى من اغماد السيف فيه ، وهنا تنتهى المحنة الاولى .

ولكنهم لا يكادون يخرجون منها حتى تتطور الاحداث وتظهر العقد الثانية حيث نرى فارسا وسيما يقصدهم ويقبل الارض بين ايديهم ، ويوهمهم انه عبد فر من سيده بعد ان هم بقتله ، وانه اتخذ منهم سادة له وتفرح الجماعة بهذه الهدية التى قدمتها لهم السماء ، ويهديهم الفتى الى مكان خصب يستظلون فيه ، وهناك يحطون رحالهم ، ويربط الفتى خيولهم ويضعون اسلحتهم ، ويمتطى الفتى فرسا وياتى امامهم ببعض العاب الفروسية ولكنه يرمى احدهم بسهم فى صدره ويرمى آخر فى ظهره ويأمرهم بأن يشد كل واحد منهم يدى رفيقه ، فلا يملكون الا الخضوع وهنا تظهر العقدة الثانية ، وياتى الحل حيث يبقى عيسى بن هشام لا يجد من يربطه ، ويأمره الفتى بخلع خفه الجديد ، ويتظاهر عيسى بعدم استطاعته خلع خفه الرطب ، فيتقدم اليه الفتى ليخلع الخف ولكن عيسى قد خبأ سكينا فى خفه يفاجىء بها الفتى ويثبتها فى بطنه فيخر صريعا

ويبدو الصراع واضحا فى كثير من المقامات ، وقد يكون الصراع بين انسان وانسان ، وقد يكون وبين انسان وحيوان ، وينتج الصراع من احداث عارضة ولا يمثل صراعا بين مبادىء اجتماعية او سياسية .

تعبير المقامات عن بديع الزمان

اذا كان ابو الفتح الاسكندرى يظهر فى دور البطل ويقوم بدور المكدى فهو فى الحقيقة يعبر عن نظرة بديع الزمان إلى كثير من مشكلات المجتمع وما ساده من ظروف اقتصادية وما ساده من تيارات ثقافية وادبية ومذهبية وسياسية ، فقد كان بديع الزمان طموحا محبا للظهور كثير الفخ

بنفسه ، وهكذا رأينا أبا الفتح الاسكندرى ، وكان بديع الزمان رحالة لا يقر قراره طويلا وكان المال هدفا له ، ومن هنا كان أبو الفتح ينشد المال ويطلبه بكل طريقة ، مرة يتسول ومرة يعظ ، ومرة يدعى القدرة على صنع المعجزات ، ومرة يخطف ويهرب .

وكان بديع الزمان ساخطا على الحياة وعلى المجتمع يرى ان الحياة لم تنله ما يستحق من الاكبار وفتح هذا السخط عينيه على المساوىء فرآها ونقدها فى مقاماته ، وكان له رايه ومذهبه فنقد ما لم يرقه من المذاهب ، وكان له رايه وطريقته فى الأدب فنقد الشعراء والكتاب ، ومن هنا نبعت المقامات من نفسية بديع الزمان ، وكان البديع يكبر الادب والادباء ولكنهم يعانون من الفقر ومن الاهمال فصور الأدباء يتكسبون بالأدب .

ومما يصور مشاعر نفسية عميقة عند بديع الزمان ما نراه فى المقامة الخلفية ، ذلك أن بديع الزمان كان أبيا شامخا وكان يضيق بمؤامرات البلاط وقد صور ذلك حيث صحب عيسى بن هشام (وكان والى البصرة) شابا يصفه بقوله : (كأنه العافية فى البدن) ، ويتحدث هذا الشاب عن نفسه فيقول : « انى فى أعطاف الأرض ضائع ، لكنى اعد معد ألف واقوم مقام صف » ويفتقد عيسى بن هشام صاحبه ثم يلقاه فيسأله : ما الذى انكرت ؟ ولم هجرت ؟. ومن جوابه : « وعلى كل حال ننظر من عال على الكريم نظرة ادلال ، وعلى اللئيم نظرة اذلال ، فمن لقينا بأنف طويل لقيناه بخرطوم فيل ، وانت لم تغرسنى ليقلعنى غلامك ولا اشتريتنى ليبيعنى خدامك ، فان كان جفاؤك شيئا امرت به فما الذى أوجب ؟ وإن لم تكن علمت به كان أعجب » .

تمثيل المقامات لجوانب المجتمع

جاءت المقامات تعبيرا عن الحياة فى أيام بديع الزمان ، كان هناك ن يطلق عليهم الشطار يقطعون الطريق على الناس ويستولون على

اموالهم ، وقد عانى بديع الزمان نفسه من ذلك عندما كان متوجها الى نيسابور اذ خرج عليه قطع الطريق ، وصور ذلك فى احدى مقاماته اذ يقول : « حتى استنظفوا حقائبنا واراحوا ركائبنا ، ونظمنا القد احزابا وربطت خيولنا اعتصابا ، حتى اردف الليل الاذ به ومد النجم اطنابه ، ثم انتحوا عجز الفلاة واخذنا صدرها » .

ورسم بديع الزمان صورا للمكدين والاعيبهم ، وكان جماعة من المكدين يعرفون بالساسانيين يقتحمون الاماكن العامة ويستجدون الناس بأسلوب ادبى طريف أو باللجوء الى التحايل والخداع ، وسمى هؤلاء المكدون بالساسانيين نسبة الى ساسان الذى قيل : انه ابن ملك عهد بالحكم من بعده الى ابنته فحزن اخوه وهام على وجهه ، وقيل انه ملك من ملوك العجم حاربه دارا ملك الفرس واستولى على ملكه فصار رجلا فقيراً يسأل الناس ، وقيل : ان ساسان رجل فقير بصير فى استعطاء الناس والاحتيال فنسبوا اليه .

وصور بديع الزمان كثيرا من الاعيب هؤلاء المكدين فنراه يقول : « اخذت عيناى رجلا قد لف راسه ويصب جسده وبسط يده واحتضن عياله وتابط اطفاله وهو يقول :

ويلى على كفين من سويق   او شحمة تضرب بالدقيق
او قصعة تملأ من خرديق   يفثأ عنا سطوات الريق »(1)

ومرة يظهر أبو الفتح مدعيا العمى ، ومرة نراه يرقص قردا والناس يشق الضحك أشداقهم وكانه يسخر من البسطاء الذين يضحكون لتوافه الاشياء ؛ ومن الصور التى رسمها بديع الزمان صورة الشحاذ والطبل والغناء وما يلبسه الدجالون من اردية ملونة ويغطون رءوسهم بفوطة ويمسكون عصا ويأتون بحركات (هستيرية) وهم يدعون الفقر

(1) السويق شراب يتخذ من الحنطة الشعير ، الخرديق المرق ، يفثأ يسكن ، سطوات الريق تلهبه من العطش والجوع .

والجوع ويذكرون الناس بجزاء المتصدقين ، ومن الوان التحايل التى وردت في المقامات بيع الدواء المغشوش ، وقد يتخذ المكدى الدين وسيلة للوصول الى هدفه ، وفي احدى المقامات يدعى ابو الفتح الاسكندري ان النبى علمه دعاء واوصاه ام يعلمه امته وفى ذلك يقول : « رايته صلى الله عليه وسلم فى المنام كالشمس تحت الغمام والبدر ليل التمام ، يسير والنجوم تتبعه ، ويسحب الذيل والملائكة ترفعه ، ثم علمنى دعاء اوصانى ان اعلم ذلك امته فكتبته على هذه الاوراق بخلوق ومسك وزعفران وسك . فمن استوهبه منى وهبته ، ومن رد على ثمن القرطاس اخذته » .

وهناك لون آخر من التحايل فيه ظرف وفكاهة كالذى ورد في المقامة الارمنية اذ يحتال حتى يحصل على الخبز ثم على اللبن ، يقول عيسى ابن هشام بعد ان يلتقى بابى الفتح : « وسرنا في طلب ابي جابر (كنية تطلق على الخبز) فوجدناه يطلع من ذات لظى لسجر بالغضا فعمد الاسكندرى الى رجل فاستماحه كف ملح ، وقال للخباز : اعرنى راس التنور فانى مقرور ، وجعل ينثر الملح فى التنور من تحت اذياله يوهمهم ان اذى بثيليه ، فقال الخباز : مالك ؟ لا ابالك ، اجمع اذيالك فقد افسدت الخبز علينا ، وقام الى الرغفران فرماها ، وجعل الاسكندرى يلقطها ويتابطها » هذا عن الخبز ، وبقى الادم ، وقد حصل عليه بطريقته الفكهة ، قال : « وصار الى رجل قد صفف أوانى نظيفة فيها الوان الالبان فساله عن الاثمان ، واستاذن فى الذوق ، فقال : افعل ، فادار فى الآنية اصبعه كانه يطلب شيئا ضيعه ، ثم قال : ليس معى ثمنه ، هل لك رغبة فى الحجامة ؟ فقال : قبحك الله ، أنت حجام ؟ قال : نعم ، فعمد لاعراضه يسبها والى الآنية يصبها ، فقال الاسكندرى : آثرنا على الشيطان ، فقال : خذها لابورك لك فيها ، فاخذناها واكلناها بدفعة » .

وصورت المقامات كثيرا من الوان الاطعمة السائدة آنذاك ، وصورت

الأصحاب واقبالهم على الغنى طمعا فيما عنـده وتخيلهم عنه اذا نفد ماله ، وصورت النفاق الذى يسـود المجتمع والظهـور بمظهر يخالف الباطن ، يقول عيسى بن هشـام : « اجتاز بى رجل قد لبس دنية وتحنك سنية ؛ فقلت لمصـل بجنبى : من هـذا ؟ قال : هـذا سـوس لا يقع الا فى صـوف الأيتـام ، وجراد لا يسـقط الا على الزرع الحرام ، وذئب لا يفترس عباد الله الا بين الركوع والسـجود ، ومحارب لا ينهب مال الله الا بين العهود والشـهود ، وقد لبس دنيته وخلع دينيته ، وسـوى طيلسـانه وحرف يده ولسـانه ، وابدى شـقاشقه وغطى مخارقه ؛ وبيض لحيته وسـود صحيفته » . .

ومن الظواهر التى تصورها المقامات انتشار الشـائعات ، حيث يدعى ابو الفتح القدرة على اعادة الحيـاة الى الميت ، وتنتشر الشائعات بان الميت عادت اليه الحيـاة وتنهال الهدايا على أبى الفتح ، كما صورت المقامات لمحات من الصراع بين العرب والعجم ، فكثيرا ما يفخر أبو الفتح بعروبته ، ويمدح عيسى بن هشام فتى تقدم لمنازلة الأسد فيقول :

أخضر الجلدة فى بيت العرب يملأ الدلو الى عقد الكرب

وصورت المقامات لمحات من الحياة السياسية كما رأينا فى المقـامة التى ظهر فيها عيسى بن هشـام واليا على البصرة ، وسأل صـاحبه : ثم هجرت ؟ ورد عليه ردا يعبر عن مسـئولية الحاكم عما يقع من اتباعه . وان الحاكم مسـئول ولو ادعى جهله بما يحدث ، وصـورت المقـامات بعض الخلافات العقائدية بين المعتزلة وأهل السـنة .

الموضوعات الأدبيـة

وليس عجيبا أن تكون الموضوعات الأدبيـة من ابرز المسـائل التى خاضتها المقامات ، فهو كثيرا ما يتحدث عن جماعة جلسـوا يتدارسون الأدب مما يدل على شـيوع هذه الظاهرة فى تلك البيئة واهتمام الناس بالأدب شـعره ونثره ، وقـد ناقشت المقـامات بعض القضـايا التى

كانت مطروحة آنذاك وابدت فيها آراء مجملة احيانا واحيانا مفصلة .
وفى المقامة القريضية نرى جماعة يتدارسون الادب ، ويتحدث ابو الفتح
عن امرىء القيس والنابغة الذبيانى وزهير بن أبى سلمى ، ثم يتحدث
عن جرير والفرزدق وغيرهم ، ويهتدى الى اثر العاطفة فى جودة الشعر
فيقول عن النابغة : « ينسب اذا عشق ، ويثلب اذا حنق ، ويمدح
اذا رغب ، ويعتذر اذا رهب » فهو يقول عن احساس صادق .

وقد يأتى الحوار الأدبى فى صورة ملغزة يتحير لها السامعون ،
ثم يجيب فيكشف الأسرار ويحل الرموز ، ومن ذلك ما ورد فى المقامة
العراقية ، حيث يسأل ابو الفتح اسئلة محيرة منها : « وهل للعرب
بيت سمج وضعه وحسن قطعه ؟ وأى بيت لا يرقأ دمعه ؟ وأى بيت
يشج عروضه ويأسو ضربه ؟ وأى بيت يعظم وعيده ويصغر خطبه ؟ »
وحين يحيونه ويسألونه التفسير يجيبهم : اما البيت الذى سمج وضعه
وحسن قطعه فقول ابى نواس :

فبتنا يرانا الله شر عصابة   نجرر أذيال الفسوق ولا فخر

وأما البيت الذى لا يرقأ دمعه فقول ذى الرمة :

ما بال عينك منها الماء ينسكب   كأنه من كلى مفرية سرب ؟

وأما البيت الذى يشج عروضه ويأسو ضربه فقول الشاعر :

دلفت له بأبيض مشرفى   كما يدنوا المصافح للسلام

واما البيت الذى يعظم وعيده ويصغر خطبه فقول عمرو بن كلثوم :

كأن سيوفنا منا ومنهم   مصاريق بأيدى لاعبينا

وفى هذا النقد نرى الاتجاهات الأدبية المتنوعة فنرى الاتجاه الفنى
فى حديثه عن النابغة ونرى الاتجاه الخلقى فى نقده لابى نواس ، ونرى
الاتجاه المعنوى فى نقده لعمرو بن كلثوم .

اما المقامة الجاحظية فتكشف عن رأى بديع الزمان فى النثر ومذهبه
فيه ، وهو رأى مطابق لخصائصه الفنية فى كتاباته ، وفى هذه المقامة

يعيب طريقة الجاحظ ، ويشيد بالطريقة الجديدة ومذهب التصنيع .
ويبدأ النقد بالاشادة بالجاحظ فى قضايا عامة كما هو الشائع بين الناس حيث يقول : « فاخذنا فى وصف الجاحظ ولسنه ، وحسن سننه فى الفصاحة وسننه » ، ثم يبدأ بديع الزمان على لسان ابى الفتح فى الطعن على الجاحظ فيقول : « ولو انتقدتم لبطل ما اعتقدتم » ، ثم يفصل المآخذ وتتلخص فى ان الجاحظ يكتب النثر ولا يكتب الشعر ، والأديب الكامل من يجمع بينهما ، ثم يعيب على الجاحظ انه قليل الاستعارات قريب المآخذ لا يهتم بالبديع ولا يتانق فى اسلوبه .

وآراء بديع الزمان هنا فيها كثير من المجافاة للحقيقة ، فليس من الضرورى للأديب ان يجمع بين الشعر والنثر ، ثم ان اسلوب الجاحظ لا يقلل من قيمته الفنية انه لا يهتم بالاستعارات ولا يتكلف السجع والمحسنات ، فالاديب ابن عصره ، ولم يكن هذا التكلف قد شاع فى عهد الجاحظ ولكن بديع الزمان يزن الأمور بميزانه .

وللمقامة الابليسية قيمة عظمى فى مجال الأدب العربى لما جاء فيها من حديث عن شياطين الشعراء وما يوجون به ، وفيها لقاء مع الشيطان وحوار معه ، وهنا يروى عيسى بن هشام انه خرج فى طلب ابل ضالة ، واذا شيخ يحادثه ويسأله عن اشعار العرب فينشده عيسى اشعارا لامرىء القيس ولبيد وطرفة فلا يطرب لشىء منها ، ويعرض الشيخ على عيسى ابن هشام ان ينشده شيئا من شعره ، قال عيسى : ايه ، فانشد الشيخ :

بان الخليط ولو طوعت ما بانا   وقطعوا من حبال الوصل اقرانا

فقال عيسى : يا شيخ هذه القصيدة لجرير قد حفظها الصبيان وعرفها النسوان ، فقال : دعنى من هذا ، وان كنت تروى لابى نواس شعرا فانشدنيه ، فانشده شعرا ما جنا فطرب وشهق ، فقال

عيسى : قبحك الله ، لا ادرى ابانتحالك شعر جرير انت أسخف ؟ ام بطريك من شعر ابى نواس وهو فويسق عيار ؟ ، واخيرا يكشف الشيخ عن شخصه فاذا هو ابو مرة احد شياطين الشعراء وهو الذى املى على جرير هذه القصيدة .

ويرى د. شوقى ضيف ان هذه المقامة أوحت لابن شهيد أن يكتب رحلته الشهيرة (التوابع والزوابع) ويقصد بها الشياطين ، ويرى أيضا أن أبا العلاء المعرى متأثر فى (رسالة الغفران) ببديع الزمان فى حكاية شياطين الشعراء .

وتحفل المقامات بكثير من الأخبار وأعلام الأدب والتاريخ ، وحفلت بكثير من الأوصاف الادبية ، وتأتى بعض هذه الأوصاف فى صورة الغاز ، وتأتى أحيانا فى صورة مشرقة تعكس مظاهر الطبيعة .

الاســـلوب

جاءت المقامات بطريقة السرد حيث تبدأ المقامة بقوله : « حدثنا عيسى بن هشام قال : » ويورد المقامة على لسان الراوي ، ولم تخل المقامات من الحوار ، ويأتى الحوار بين الرأوية البطل ، أو بين احدهما وبعض الشخصيات ، وهو حوار قصير غالبا لا يهدف الى الكشف عن نفسية المحاورين وانما يهدف الى بيان مقدرة البطل واظهار الاعجاب به ، وقليلا ما يطول الحوار ، ويعبر ابو الفتح فى حواره عن آراء بديع الزمان .

ونادرا ما يرد حوار يكشف عن نفسية المتحاورين ، وفى المقامة البغدادية يكشف الحوار عن سذاجة السوادى ودهاء عيسى بن هشام بطل هذه المقامة ، ولا يدور الحوار حول آراء متعارضة فرأى أبى الفتح غالب دائما ، وكشف الحوار فى المقامة الحلوانية عن صراع بين المتحاورين ولكنه لم يكن صراعا حول مبادىء أو آراء متعارضة ، وانما هو صراع حول لقمة العيش ، فقد دخل عيسى بن هشام حماما فسارع احد

العاملين فلطخه بالطين ليكون له حق تنظيفه ، وقدم آخر فجعل يدلكه دلكا يكد العظام ، ودار حوار بين العاملين وانتهيا الى صاحب الحمام ؛ وهو حوار يهدف قبل كل شيء الى الفكاهة وابراز المواقف المتناقضة .

وفي مقامات بديع الزمان موقف يكشف الحوار فيه عن نفسية المتحاورين ويكشف عن نظرة فلسفية تقول بمسؤلية الحاكم عما يجرى من احداث ، وان تتابع الأذى يؤدى الى التمرد ، وان ترك العتاب ينمى السخط ، ومن قول ابى الفتح : « والقطر اذا تتابع على الاناء امتلأ وفاض ، والعتب اذا ترك فرخ وباض ، والمرء من غلمانه كالكتاب من عنوانه ، فان كان جفاؤهم شيئا امرت به فما الذى اوجب ؟ ، وان لم تكن علمت به كان اعجب » .

وهكذا نستطيع ان نقول : ان الحوار فى مقامات بديع الزمان يميل الى الايجاز ولا يدور حول قضايا ومبادىء متصادمه ، ولا يقصد الى تحليل النفس الانسانية الا نادرا ويهدف فى معظم المواقف الى ابراز مقدرة ابى الفتح الذى يعبر عن آراء بديع الزمان .

وجاء اسلوب المقامات صورة لاسلوب الكتابة فى القرن الرابع الهجرى ، فقد كان ملتزما للسجع الا فى القليل النادر ، ولا يكتفى بديع الزمان بايراد سجعتين ، بل أن السجعات تتوالى حتى تصل الى سبع سجعات احيانا ، ويحرص ايضا على التوازن الموسيقى بين الجمل ، بل ان هذا التوازن الموسيقى يتحول أحيانا الى شطرات موزونة كما نرى فى قوله فى المقامة الرصافية : « واهل الكف والقف ، ومن يعمل بالطف ، ومن يحتال فى الصف ، ومن يخنق بالدف ، ومن يكمن فى الرف ، الى ان يمكن اللف » .

ويهتم بديع الزمان بالطباق والجناس فى النثر وفى الشعر الوارد فى المقامات كما فى قوله :

اصبحت من بعد غنى ووفر ساكن قفر وحليف فقر

ويهتم بديع الزمان بالصور البيانية ، وبعض هذه الصور مطروق ، وبعضها جديد ، ومن التشبيهات الجديدة الممزوجة بالعاطفة قوله : « وتاج لنا واد ذى الاء واثل كالعذارى يسرحن الضفائر وينشرن الغدائر » ، ومن التشبيهات التى لا نظن انه سبق اليها تشبيه الحريص على المال بلاعب الشطرنج ياخذ كل ما مع الناس ويحفظ كل ما عنده .

ولبديع الزمان تشبيهات ضمنية يقتبسها من الشعراء السابقين احيانا كقوله فى مدح الأمير خلف :

يا ساريا بنجوم الليل يمدحها ولو راى الشمس لم يعرف لها خطرا
وواصفا للسواقى هبك لم تزر البحر المحيط ألم تعرف له خبرا ؟

فهو يشبه خلفا بالشمس وبالبحر تشبيها ضمنيا ، والبيت الأول متاثر بقول النابغة :

كانك شمس والملوك كواكب

والبيت الثانى متاثر بقول المتنبى :

ومن قصد البحر استقل السواقيا

ومعظم مقامات بديع الزمان يمتزج فيها الشعر بالنثر ، ومعظم هذا الشعر من انشاء بديع الزمان ويأتى على لسان أبى الفتح الاسكندرى ، وقد ياتى بأبيات من اشعار القدماء منسوبة الى قائلها او يأتى بها على لسان أبى الفتح وكانها من انشائه .

ويقتبس بديع الزمان فى مقاماته من القرآن الكريم ومن الحديث الشريف ويضمن الحكم والأمثال ، ومما اقتبسه من القرآن فى قول رجل لابنه : « الم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين » ، ومن الحكم والأمثال : « لافض فوك ، وما وراءك يا عصام » .

واسلوب بديع الزمان متين النسج قوى الوقع بعيد من الخطأ ،

فقد كان واسع الاصلاح غزير المعرفة ، ويحتوى اسلوبه على الالفاظ الغامضة قصدا الى اظهار علمه ومقدرته ، وقصدا الى تعليم اللغة ، ومما ورد من ذلك قوله : « فخرج الينا رجل حزقة فقال : من انتم ؟. قلنا : اضياف لم يذوقوا منذ ثلاثة عدوفا ، قال : فتنحنح ثم قال : فما رايكم فى نهيدة فرق كهامة الاصلع فى جفنة روحاء مكللة بعجوة خيبر ؟ » .

والحزقة القصير العظيم البطن ، والعدوف ما يذاق من الطعام ، والنهيدة الزبدة ، والفرق القطيع من الغنم أو البقر ، والروحاء الواسعة ، والجبار النخلة الطويلة والربوض العظيمة .

وكان بديع الزمان ذا قدرة على اختيار الألفاظ المعبرة الموحية ، وفى المقامة الأسدية يصف الأسد وصفا يصور مظهره ومخبره فيقول : « فاذا السبع فى فروة الموت ، قد طلع من غابة ، منتفخا فى اهابة ، كاشرا عن انيابه ، بطرف قد ملىء صلفا ، و نف قد حشى انفا ، وصدر لا يبرحه القلب ، ولا يسكنه الرعب » .

الهدف

اما الهدف من المقامات فنستطيع أن نحصره فى ثلاثة اشياء :

١ ـ اظهار المقدرة الفنية ، فقد كان بديع الزمان واثقا بنفسه فخورا بقدراته ، فعمد الى الكشف عن قوة حافظته وسعة اطلاعه وروعة ابتكاره.

٢ ـ تصوير مظاهر مجتمعة فى صورة ادبية طريفة تدخل البهجة على النفوس ، وتكشف عن اخطاء هذا المجتمع رغبة فى اصلاح ما فسد .

٣ ـ تعليم النشء اللغة ، وقد كان بديع الزمان عربيا غيورا على العروبة ، حريصا على ان تظل اللغة قوية سليمة ، وكان حريصا على احياء ما اهمل من الفاظها ، فحرص على أن يحشد فى المقامات كلمات معجمية ليعلم الناس اللغة الفصيحة .

فهرس

	الصفحة
مقـــــدمة	٤
تمهيـــــد	٥
القصـة كليلة ودمنـة	٨
كتاب المكافأة لاحمد بن يوسف	١٦
الخطابة وتطورها	٢٤
الرســـائل	٣٤
الوصـــايا	٥٣
المنـاظرات	٦٩
المقـامات	٨٦

رقم الايداع بدار الكتب ٨٨١٢ / ١٩٩٥